الْبَابُ الثَّانِي.

(الأدِلَّةُ الْعَقْلِيَّةُ وَالْكَوْنِيَّةُ عَلَى صِدْقِ نُبُوَّتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)

ويتضمن سبعة أدلة :

الدَّلِيلُ الأَوَّلُ: الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ.

الدَّلِيلُ الثَّانِي: تَكَامُلُ شَخْصِيَّتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الدَّلِيلُ الثَّالِثُ: شَهَادَةُ الأَنْبِيَاءِ والكُتُبِ السَّابِقَةِ بِمَبْعَثِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الدَّلِيلُ الرَّابِعُ: شَهَادَةُ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الدَّلِيلُ الْخَامِسُ: شَهَادَةُ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ لَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الدَّلِيلُ السَّادِسُ: شَهَادَةُ الْمُنْصِفِينَ مِنَ الْغَرْبِيِّينَ

الدَّلِيلُ السَّابِعُ: شَهَادَةُ الْوَاقِعِ

البَابُ الثَّانِي

(الأدِلَّةُ العَقْلِيَّةُ وَالكَوْنِيَّةُ عَلَى صِدْقِ نُبُوَّتِهِ ﷺ)

اقْتَضَتْ حِكْمَةُ الله تَعَالَى أَلَّا يَدَعَ النَّاسَ هَمَلًا، وَلَا يَتْرُكَهُمْ سُدًى، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ مَا بَيْنَ حِينٍ وَآخَرَ مُبَلِّغِينَ عَنْهُ يَهْدُونَ خَلْقَهُ إِلَيْهِ وَيُدِلُّونَهُمْ عَلَيْهِ، وَيُرْشِدُونَهُم إِلَى مَرَاضِيهِ، وَيُحَذِّرُونَهُمْ مِنْ مَسَاخِطِهِ ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ ﴾ (النساء).

كَمَا أَنَّ مِنْ مهمَّةِ هَؤُلَاءِ الرُّسُلِ وَضْعَ الْقَوَاعِدِ وَالْقِيَمِ وَالْمَوَازِينِ الَّتِي تَضْبِطُ الْحَيَاةَ وَتُنَظِّمُ الْمُجْتَمَعَ.

وَلَوْلَا هَؤُلَاءِ الرُّسُلِ لَضَلَّ النَّاسُ السَّبِيلَ فِي تَصَوُّرِهِمْ لِحَقِيقَةِ الْأُلُوهِيَّةِ ، وَلَضَلُّوا طَرِيقَهُمْ إِلَى الله وَوَاجِبَهُمْ نَحْوَهُ ، وَلَابْتَدَعُوا طَرَائِقَ قِدَدًا ، وسُبُلًا شَتَّى مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ .

وَإِنَّ حِكْمَةَ الله ﷻ اقْتَضَتْ أَلا يُرْسِلَ رَسُولًا إِلَّا وَيُؤَيِّدُهُ بِالْمُعْجِزَاتِ وَالْأَدِلَّةِ ؛ لِتَكُونَ شَاهِدَةً لَهُ عَلَى صِدْقِهِ فِيمَا يَدَّعِيهِ مِنَ النُّبُوَّةِ .

وَكَانَتْ مُعْجِزَةُ كُلِّ نَبِيٍّ مُمَثِّلَةً فِي شَيْءٍ مِنْ جِنْسِ مَا بَرَع قَوْمُهُ فِيهِ؛ فَبَنُو إِسْرَائِيلَ لَمَّا أَرْسَلَ اللهُ إِلَيْهِمْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانُوا مَهَرَةً فِي السِّحْرِ، فَجَاءَهُمْ بِما هُوَ أَعْظَمُ، وَلَمَّا أَرْسَلَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَيْضًا كَانُوا قَدْ بَرَعُوا فِي الطِّبِّ فَجَاءَهُمْ بِما فَاقَهُمْ فِيهِ.

وَعِنْدَمَا أَرْسَلَ اللهُ ﷻ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيَّدَهُ اللهُ تَعَالَى بِأَدِلَّةٍ وَمُعْجِزَاتٍ جَمَعَتْ بَيْنَ مُعْظَمِ مُعْجِزَاتِ الْأَنْبِيَاءِ السَّابِقِينَ، وَفَاقَتْهَا، وَكَانَتْ أَهَمَّ مُعْجِزَةٍ باقِيَةٍ

بُعِثَ بِهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ.

وَإِنَّ أَسَاسَ التَّصْدِيقِ بِنُبُوَّتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْإِيمَانُ الْجَازِمُ بِصِحَّةِ مَا جَاءَ عَنِ اللهِ سُبْحَانَهُ، وَأَنَّهُ نَبِيٌّ مُوحَى إِلَيْهِ، هَذِهِ حَقِيقَةٌ كُلِّيَّةٌ يَجِبُ اسْتِصْحَابُهَا عِنْدَ مُطَالَعَةِ بَعْضِ الْأَدِلَّةِ التَّالِيَةِ الَّتِي تُوَضِّحُ لَنَا صِدْقَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

الدَّلِيلُ الأَوَّلُ: الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ[1]

لَمْ تَكُنْ مُعْجِزَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُؤَقَّتَةً كَمُعْجِزَاتِ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لِهَذَا كَانَ الْقُرْآنُ هُوَ الْمُعْجِزَةُ الْخَالِدَةُ الباقِيَةُ الَّتِي تَحَدَّى بِهَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْعَرَبَ، وَهُمْ أَرْبَابُ الْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ وَالْبَيَانِ، وَلَمْ تَنْتَهِ هَذِهِ الْمُعْجِزَةُ بِوَفَاةِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَلِ تَسْتَمِرُّ إِلَى أَنْ يَشَاءَ اللهُ تعالى:

وَتَتَّضِحُ أَوْجُهُ إِعْجَازِ الْقُرْآنِ مِنْ خِلَالِ الْمَبَاحِثِ التَّالِيَةِ:

الْمَبْحَثُ الْأَوَّلُ: الْإِعْجَازُ اللُّغَوِيُّ وَالْبَيَانِيُّ.

الْمَبْحَثُ الثَّانِي: الْإِعْجَازُ التَّشْرِيعِيُّ.

الْمَبْحَثُ الثَّالِثُ: الْإِعْجَازُ الْعِلْمِيُّ.

الْمَبْحَثُ الرَّابِعُ: الإِعْجَازُ التَّارِيخِيُّ.

الْمَبْحَثُ الْخَامِسُ: الإِعْجَازُ الْغَيْبِيُّ.

الْمَبْحَثُ السَّادِسُ: الْإِعْجَازُ النَّفْسِيُّ.

---

١) هذا الفصل مستفاد من كتاب "أسوة للعاملين" د/ راغب السرجاني ص (١٠٢)، وما بعدها.

الْمَبْحَثُ الأَوَّلُ

الإِعْجَازُ اللُّغَوِيُّ وَالْبَيَانِيُّ

يَخْتَلِفُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ فِي نَظْمِهِ عَنِ الشِّعْرِ وَالنَّثْرِ، وَلَكِنَّهُ فِي الْوَقْتِ ذَاتِهِ يَجْمَعُ مِنْ خَصَائِصِهِمَا مَا يُدْهِشُ الْمُسْتَمِعَ لَهُ، وَلِإِعْجَازِ النَّظْمِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ عِدَّةُ مَظَاهِرَ تَتَجَلَّى فِيهَا(١).

أَوَّلا: الْخَصَائِصُ الْمُتَعَلِّقَةُ بِالْأُسْلُوبِ:

فَأُسْلُوبُهُ يَجْرِي عَلَى نَسَقٍ بَدِيعٍ خَارِجٍ عَنِ الْمَعْرُوفِ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ، فَالْفُنُونُ التَّعْبِيرِيَّةُ عِنْدَهُمْ لَا تَعْدُو أَنْ تَكُونَ شِعْرًا أَوْ نَثْرًا، وَلَكِنَّ الْقُرْآنَ شَيْءٌ آخَرُ؛ فَلْنَنْظُرْ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣﴾ (فصلت).

فَهَذِهِ الْآيَاتُ حِينَمَا سَمِعَهَا عُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ- وَكَانَ مِنْ أَهْلِ الْبَيَانِ- اسْتَوْلَتْ عَلَى أَحَاسِيسِه وَمَشَاعِرِهِ، وَوَقَفَ فِي ذُهُولٍ قَائِلًا « وَاللهِ لَقَدْ سَمِعْتُ مِنْ مُحَمَّدٍ قَوْلًا مَا سَمِعْتُ مِثْلَهُ قَطُّ، وَاللهِ مَا هُوَ بِالشِّعْرِ وَلَا بِالسِّحْرِ وَلَا بِالْكَهَانَةِ، وَاللهِ لَيَكُونَنَّ لِقَوْلِهِ الَّذِي سَمِعْتُهُ نَبَأٌ عَظِيمٌ »(٢).

---

١) الإعجاز في نظم القرآن الكريم - محمد السيد شيخون، دراسات حول الإعجاز البياني في القرآن المحمدي- عبد العزيز الحناوي، إعجاز القرآن البياني - عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ).

٢) دلائل النبوة للبيهقي (٥٠٩) (٢/ ٧٩)، السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٩٤)، الروض الأنف للسهيلي (٢/ ٤٦)، وابن كثير: السيرة النبوية (١/ ٥٠٤، ٥٠٥).

كَمَا أَنَّ الْأُسْلُوبَ الْقُرْآنِيَّ نَسَقُهُ وَاحِدٌ فِي السُّمُوِّ فِي جَمَالِ اللَّفْظِ، وَعُمْقِ الْمَعْنَى وَدِقَّةِ الصِّيَاغَةِ وَرَوْعَةِ التَّعْبِيرِ، رَغْمَ تَنَقُّلِهِ بَيْنَ مَوْضُوعَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ مِنَ التَّشْرِيعِ وَالْقَصَصِ وَالْمَوَاعِظِ، وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ.

وَمِنْ خَصَائِصِ الْأُسْلُوبِ الْقُرْآنِيِّ كَذَلِكَ أَنْ مَعَانِيَهُ صِيغَتْ لِتُنَاسِبَ خِطَابَ النَّاسِ عَلَى اخْتِلَافِ مَدَارِكِهِمْ وَثَقَافَتِهِمْ، وَعَلَى تَبَاعُدِ أَزْمِنَتِهِمْ وَبُلْدَانِهِمْ، وَمَعَ تَطَوُّرِ عُلُومِهِمْ وَاكْتِشَافَاتِهِمْ.

فَتَدَبَّرْ مَثَلا قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ ﴾ (الفرقان)، فَهَذِهِ الْآيَةُ تَصِفُ كُلًّا مِنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ.

فَالْعَامِيُّ مِنَ الْعَرَبِ يَفْهَمُ مِنْهَا أَنَّ كُلًّا مِنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ يَبْعَثَانِ بِالضِّيَاءِ إِلَى الْأَرْضِ، وَالْمُتَأَمِّلُ مِنْ عُلَمَاءِ الْعَرَبِيَّةِ يُدْرِكُ مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ أَنَّ الْآيَةَ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الشَّمْسَ تَجْمَعُ إِلَى النُّورِ الْحَرَارَةَ؛ فَلِذَلِكَ سَمَّاهَا سِرَاجًا، وَالْقَمَرَ يَبْعَثُ بِضِيَاءٍ لَا حَرَارَةَ فِيهِ لِذَلِكَ سُمِّيَ مُنِيرًا، أَمَّا الْعَالِمُ الْفَلَكِيُّ الْحَدِيثُ فَقَدْ يَفْهَمُ مِنْهَا أَنَّ إِضَاءَةَ الشَّمْسِ ذَاتِيَّةٌ كَالسِّرَاجِ، بَيْنَمَا نُورُ الْقَمَرِ مُجَرَّدُ انْعِكَاسٌ، وَكُلُّ هَذِهِ الْمَعَانِي صَحِيحَةٌ (١).

كَمَا يَتَمَيَّزُ الْأُسْلُوبُ الْقُرْآنِيُّ بِظَاهِرَةِ التَّكْرَارِ الَّذِي يَنْطَوِي عَلَى مَعَانٍ بَلَاغِيَّةٍ كَالتَّهْوِيلِ وَالْإِنْذَارِ، وَالتَّجْسِيمِ وَالتَّصْوِيرِ.

وَمِنْ أَمْثِلَتِهِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلْحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا

---

١) النبأ العظيم. نظرات جديدة في القرآن الكريم- محمد عبد الله درَّاز ، ص (١٤٧، ١٤٨).

﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝٣﴾ (الحاقة)، وقوله تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۝٢٦ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ۝٢٧﴾ (المدثر).

وَهُنَاكَ تَكْرَارٌ مِنْ نَوْعٍ آخَرَ وَهُوَ تَكْرَارُ بَعْضِ الْقَصَصِ الْقُرْآنِي؛ وَلَكِنَّهُ تَكْرَارٌ يُؤَدِّي مَعَانِيَ خَاصَّةً، حَتَّى لَكَأَنَّنَا أَمَامَ قِصَّةٍ جَدِيدَةٍ، كَمَا فِي قِصَّةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ الَّتِي وَرَدَتْ فِي حَوَالَيْ ثَلَاثِينَ مَوْضِعًا فِي الْقُرْآنِ.

•••

ثَانِيا: الْخَصَائِصُ الْمُتَعَلِّقَةُ بِالنَّظْمِ الْقُرْآنِيِّ:

أَيْ الْمُتَعَلِّقَةِ بِجَمَالِ الْمُفْرَدَةِ الْقُرْآنِيَّةِ، وَالَّتِي مِنْ أَهَمِّ مَزَايَاهَا جَمَالُ وَقْعِهَا فِي السَّمْعِ، وَاتِّسَاقُهَا الْكَامِلُ مَعَ الْمَعْنَى، وَاتِّسَاعُ دِلَالَتِهَا لِمَا لَا تَتَّسِعُ لَهُ عَادَةً دِلَالَاتُ الْكَلِمَاتِ الْأُخْرَى مِنَ الْمَعَانِي وَالْمَدْلُولَاتِ.

وَلْنَتَدَبَّرْ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۝١٧ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨﴾ (التكوير)، فَفِي هَاتَيْنِ الْكَلِمَتَيْنِ: ﴿عَسْعَسَ﴾، و﴿تَنَفَّسَ﴾ تَشْعُرُ أَنَّهُمَا تَبْعَثَانِ فِي خَيَالِكَ صُورَةَ الْمَعْنَى مَحْسُوسًا مُجَسَّمًا دُونَ حَاجَةٍ لِلرُّجُوعِ إِلَى قَوَامِيسِ اللُّغَةِ، وَهَلْ فِي مَقْدُورِكَ أَنْ تُصَوِّرَ إِقْبَالَ اللَّيْلِ وَتَمَدُّدَهُ فِي الْآفَاقِ الْمُتَرَامِيَةِ بِكَلِمَةٍ أَدَقَّ وَأَدَلَّ مِنْ ﴿عَسْعَسَ﴾؟! وَهَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تُصَوِّرَ انْفِلَاتَ الضُّحَى مِنْ مَخْبَأِ اللَّيْلِ وَسِجْنِهِ بِكَلِمَةٍ أَرْوَعَ مِنْ ﴿تَنَفَّسَ﴾[1]؟!

•••

---

١) البيان في روائع القرآن - تمام حسّان من ص (٢٨٩- ٣٢٨).

ثَالِثا: الْخَصَائِصُ الْمُتَعَلِّقَةُ بِالْجُمْلَةِ الْقُرْآنِيَّةِ:

وَنَجِدُ ذَلِكَ وَاضِحًا فِي التَّلَاؤُمِ وَالِاتِّسَاقِ الْكَامِلَيْنِ بَيْنَ كَلِمَاتِهَا، وَبَيْنَ حَرَكَاتِهَا وَسَكَنَاتِهَا؛ فَالْجُمْلَةُ فِي الْقُرْآنِ تَجِدُهَا دَائِمًا مُؤَلَّفَةً مِنْ كَلِمَاتٍ وَحُرُوفٍ وَأَصْوَاتٍ يَسْتَرِيحُ لَهَا السَّمْعُ وَالصَّوْتُ وَالْمَنْطِقُ، وَيَتَكَوَّنُ مِنْ تَضَامِّهَا نَسَقٌ جَمِيلٌ يَنْطَوِي عَلَى إِيقَاعٍ رَائِعٍ، مَا كَانَ لِيَتِمَّ لَوْ نُقِصَتْ مِنَ الْجُمْلَةِ كَلِمَةٌ أَوْ حَرْفٌ، أَوْ اخْتَلَفَ تَرْتِيبُ مَا بَيْنَهَا بِشَكْلٍ مِنَ الْأَشْكَالِ، فَاقْرَأْ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ ﴾ (القمر)، وَتَأَمَّلْ تَنَاسُقَ الْكَلِمَاتِ فِي كُلِّ جُمْلَةٍ، بَلْ وَتَنَاسُقَ الْحُرُوفِ قَبْلَ الْكَلِمَاتِ.

وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ الْبَاقِلَّانِيُّ: « وَمَعْنًى سَابِعٌ، وَهُوَ أَنَّ المعانيَ التي تَضَمَّنَها في أَصْلِ وضْعِ الشَّرِيعَةِ والأَحْكَامِ، والاحْتِجَاجَاتِ في أَصْلِ الدِّينِ، والرَّدِّ على المُلْحِدِينَ، عَلَى تِلْكَ الْأَلْفَاظُ الْبَدِيعَةُ، وَمُوافَقَةِ بَعْضِهَا بَعْضًا فِي اللُّطْفِ وَالْبَرَاعَةِ- مِمَّا يَتَعَذَّرُ عَلَى الْبَشَرِ وَيَمْتَنِعُ »(١)!

كَمَا نَجِدُ الْجُمْلَةَ الْقُرْآنِيَّةَ تَدُلُّ بِأَقْصَرِ عِبَارَةٍ عَلَى أَوْسَعِ مَعْنًى تَامٍّ مُتَكَامِلٍ، لَا يَكَادُ الْإِنْسَانُ يَسْتَطِيعُ التَّعْبِيرَ عَنْهُ إِلَّا بِأَسْطُرٍ وَجُمَلٍ كَثِيرَةٍ، دُونَ أَنْ تَجِدَ فِيهِ اخْتِصَارًا مُخِلًّا، أَوْ ضَعْفًا فِي الْأَدِلَّةِ (٢).

---

١) أبو بكر الباقلاني: في إعجاز القرآن ص (٤٢).

٢) محمد عبد الله دراز: النبأ العظيم ص (١٥٣)، وانظر: تمام حسان: البيان في روائع القرآن ص (٣٩٥- ٤٢١).

اقْرَأْ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ (البقرة:١٧٩)، فَلَا يُمْكِنُ التَّعْبِيرُ الدَّقِيقُ عَنْ أَثَرِ قِيمَةِ الْقَصَاصِ فِي حَيَاةِ الْمُجْتَمَعِ إِلَّا بِكَلِمَةِ حَيَاة.

« فَالْحَيَاةُ الَّتِي فِي الْقِصَاصِ تَنْبَثِقُ مِنْ كَفِّ الْجُنَاةِ عَنِ الاِعْتِدَاءِ سَاعَةَ الاِبْتِدَاءِ، فَالَّذِي يُوقِنُ أَنَّهُ يَدْفَعُ حَيَاتَهُ ثَمَنًا لِحَيَاةِ مَنْ يَقْتُلُ جَدِيرٌ بِهِ أَنْ يَتَرَوَّى وَيُفَكِّرُ وَيَتَرَدَّدُ، كَمَا تَنْبَثِقُ مِنْ شِفَاءِ صُدُورِ أَوْلِيَاءِ الدَّمِ عِنْدَ وُقُوعِ الْقَتْلِ بِالْفِعْلِ... وَفِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ عَلَى مَعْنَاهَا الْأَشْمَلِ الْأَعَمِّ؛ فَالاِعْتِدَاءُ عَلَى حَيَاةِ فَرْدٍ اعْتِدَاءٌ عَلَى الْحَيَاةِ كُلِّهَا، وَاعْتِدَاءٌ عَلَى كُلِّ إِنْسَانٍ حَيٍّ، يَشْتَرِكُ مَعَ الْقَتِيلِ فِي سِمَةِ الْحَيَاةِ، فَإِذَا كَفَّ القِصَاصُ الْجَانِيَ عَنْ إِزْهَاقِ حَيَاةٍ وَاحِدَةٍ؛ فَقَدْ كَفَّهُ عَن الاعْتِدَاءِ عَلَى الْحَيَاةِ كُلِّهَا »(١).

وَكَذَلِكَ إِخْرَاجُ الْجُمْلَةِ الْقُرْآنِيَّةِ لِلْمَعْنَى الْمُجَرَّدِ فِي صُورَةٍ حِسِّيَّةٍ مَلْمُوسَةٍ، بِبَثِّ الرُّوحِ وَالْحَرَكَةِ فِيهَا، فَيَقُولُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ (البقرة:١٧)، إِنَّهُ يُصَوِّرُ لَكَ هَذَا الْمَعْنَى فِي مَظْهَرٍ مِنَ الْحَرَكَةِ الْمَحْسُوسَةِ الدَّائِرَةِ بَيْنَ عَيْنَيْكَ؛ حَيْثُ شَبَّهَ حَالَ الْمُنَافِقِ الْمُضْطَرِبِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ بِالْأَعْمَى الَّذِي لَا يُبْصِرُ(٢).

وَمِنَ اللَّافِتِ أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ اسْتَطَاعَ أَنْ يُخَاطِبَ الْعَامَّةَ وَالْخَاصَّةَ عَلَى السَّوَاءِ، فَكُلُّ إِنْسَانٍ قَادِرٌ عَلَى قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ وَفَهْمِهِ، وَاسْتِشْعَارِ مَعَانِيهِ دُونَ مَشَقَّةٍ

---

١) سيد قطب: في ظلال القرآن (١/ ١٦٥).
٢) محمد أبو زهرة: المعجزة الكبرى القرآن ص (١٨٥).

أَوْ عَنَتٍ، وَقَدْ يَقُولُ قَائِلٌ: إِنَّ خِطَابَ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ لَغَايَتَيْنِ مُتَبَاعِدَتَيْنِ عِنْدَ النَّاسِ، فَكَيْفَ اسْتَطَاعَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ أَنْ يُوَفِّقَ بَيْنَهُمَا؟!

يَقُولُ الدُّكْتُورُ (مُحَمَّدُ عَبْدُ الله دِرَازُ): « فَلَوْ أَنَّكَ خَاطَبْتَ الأَذْكِيَاءَ بِالْوَاضِحِ الْمَكْشُوفِ الَّذِي تُخَاطِبُ بِهِ الْأَغْبِيَاءَ؛ لَنَزَلْتَ بِهِمْ إِلَى مُسْتَوًى لَا يَرْضَوْنَهُ لِأَنْفُسِهِمْ فِي الْخِطَابِ، وَإِنَّكَ لَوْ خَاطَبْتَ الْعَامَّةَ بِاللَّمْحَةِ وَالْإِشَارَةِ الَّتِي تُخَاطِبُ بِهَا الْأَذْكِيَاءَ لَجِئْتَهُمْ مِنْ ذَلِكَ بِمَا لَا تُطِيقُهُ عُقُولُهُمْ، فَلَا غِنًى لَكَ- إِنْ أَرَدْتَ أَنْ تُعْطِيَ كِلْتَا الطَّائِفَتَيْنِ حَظَّهَا كَامِلا مِنْ بَيَانِكَ- أَنْ تُخَاطِبَ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا بِغَيْرِ مَا تُخَاطِبُ بِهِ الْأُخْرَى؛ كَمَا تُخَاطِبُ الْأَطْفَالَ بِغَيْرِ مَا تُخَاطِبُ بِهِ الرِّجَالَ، فَأَمَّا أَنَّ جُمْلَةً وَاحِدَةً تُلْقَى إِلَى الْعُلَمَاءِ وَالْجُهَلَاءِ، وَإِلَى الْأَذْكِيَاءِ وَالْأَغْبِيَاءِ، وَإِلَى الْعَامَّةِ وَالْمُلُوكِ، فَيَرَاهَا كُلٌّ مِنْهُمْ مُقَدَّرَةً عَلَى مِقْيَاسِ عَقْلِهِ، وَعَلَى وَفْقِ حَاجَتِهِ، فَذَلِكَ مَا لَا تَجِدُهُ عَلَى أَتَمِّهِ إِلَّا فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ؛ فَهُوَ قُرْآنٌ وَاحِدٌ يَرَاهُ الْبُلَغَاءِ أَوْفَى كَلَامٍ بِلَطَائِفِ التَّعْبِيرِ، وَيَرَاهُ الْعَامَّةُ كَلَامًا قَرِيبًا إِلَى نُفُوسِهِمْ وَعُقُولِهِمْ، لَا يَلْتَوِي عَلَى أَفْهَامِهِمْ، وَلَا يَحْتَاجُونَ فِيهِ إِلَى تَرْجُمَانٍ، فَهُوَ مُتْعَةُ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ عَلَى السَّوَاءِ؛ مُيَسَّرٌ لِكُلِّ مَنْ أَرَادَ: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾ (القمر) »(١).

• وَيَتَجَلَّى إِعْجَازُ الْقُرْآنِ الْبَيَانِيُّ فِي أَلْفَاظِهِ، فَمَا مِنْ لَفْظٍ فِيهِ يُمْكِنُ أَنْ يَقُومَ غَيْرُهُ مَقَامَهُ، وَلْتَتَدَبَّرِ اسْتِخْدَامَهُ لِلَفْظَتَيْ (امْرَأَةٍ وَزَوْجَةٍ)، فَإِنَّ الْبَيَانَ الْقُرْآنِيَّ يَسْتَعْمِلُ لَفْظَ "زَوْجٍ" حِينَمَا تَحَدَّثَ عَنْ آدَمَ وَزَوْجِهِ مِثْلَ قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ

---

١) النبأ العظيم، ص (١٤٧- ١٤٨).

أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ (البقرة)، ﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ (الأعراف)، عَلَى حِينِ يَسْتَعْمِلُ لَفْظَ "امْرَأَةٍ" فِي مِثْلِ: امْرَأَةِ الْعَزِيزِ، امْرَأَةِ نوحٍ، وَامْرَأَةِ لُوطٍ، وَامْرَأَةِ فِرْعَوْنَ.

وَقَدْ يَبْدُو مِنَ الْيَسِيرِ أَنْ يَقُومَ أَحَدُ اللَّفْظَيْنِ مَقَامَ الآخَرِ، وَكِلَاهُمَا مِنَ الْأَلْفَاظِ الْقُرْآنِيَّةِ، فَنَقُولُ فِي (زَوْجِ آدَمَ) - مَثَلا- امْرَأَةَ آدَمَ، وَفِي امْرَأَةِ الْعَزِيزِ: زَوْجَ الْعَزِيزِ، وَذَلِكَ مَا يَأْبَاهُ الْبَيَانُ الْمُعْجِزُ.

وَبِتَأَمُّلِ اسْتِعْمَالِ الْقُرْآنِ لِلْكَلِمَتَيْنِ، نَصِلُ إِلَى سِرِّ الدِّلَالَةِ: فَكَلِمَةُ زَوْجٍ تَأْتِي حِينَ تَكُونُ الزَّوْجِيَّةُ هِيَ مَنَاطُ الْمَوْقِفِ (حِكْمَةً وَآيَةً، أَوْ تَشْرِيعا وَحُكْما):

أما الحكمة والآية: ففي مثل قَولِهِ تَعَالَى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ (الروم)، وَقَولِهِ تَعَالَى: ﴿ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ (البقرة)، وَغَيْرَهَا مِنْ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ الْأُخْرَى.

فَإِذَا تَعَطَّلَتْ غَايَتُهَا مِنَ السَّكَنِ وَالْمَوَدَّةِ وَالرَّحْمَةِ؛ بِخِيَانَةٍ أَوْ تَبَايُنٍ فِي الْعَقِيدَةِ، فَهِيَ امْرَأَةٌ لَا زَوْجٌ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ (يوسف)، ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ (التحريم)؛ وكذلك "امْرَأَةُ

فِرْعَوْنَ" فَقَدْ تَعَطَّلَتْ بَيْنَهُمَا آيَةُ الزَّوْجِيَّةِ؛ وَذَلِكَ بِإِيمَانِهَا وَكُفْرِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ ﴾ (التحريم).

وَمِنْ الْمُهِمِّ أَنْ نَعْلَمَ أَنْ حِكْمَةَ الزَّوْجِيَّةِ فِي الْإِنْسَانِ وَسَائِرِ الْكَائِنَاتِ الْحَيَّةِ مِنْ حَيَوَانٍ وَنَبَاتٍ هِيَ اتِّصَالُ الْحَيَاةِ بِالتَّوَالُدِ، وَفِي هَذَا السِّيَاقِ يَكُونُ الْمَقَامُ لِكَلِمَةِ زَوْجٍ، وَزَوْجَيْنِ وَأَزْوَاجٍ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾ (النساء).

فَإِذَا تَعَطَّلَتْ حِكْمَةُ الزَّوْجِيَّةِ فِي الْبَشَرِ بِعُقْمٍ أَوْ تَرَمُّلٍ، فَهِيَ امْرَأَةٌ لَا زَوْجٌ: كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ ﴾ (هود)، وَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ ﴾ (آل عمران)، وَقَوْلِهِ: ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ ﴾ (مريم)، وَغَيْرِهَا مِنَ الْآيَاتِ، فَلَمَّا اسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ، وَحَقَّقَتِ الزَّوْجِيَّةُ حِكْمَتَهَا، كَانَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥ ﴾ (الأنبياء: ٩٠)[1].

---

١) الإعجاز البياني للقرآن - عائشة عبد الرحمن (بتصرف)، ص (٢٢٩- ٢٣١).

وأَمَّا التَّشْرِيعُ: فإِنَّ الْأَحْكَامَ تَتَعَلَّقُ بِالزَّوْجِ وَالْأَزْوَاجِ حِينَ تَكُونُ الزَّوْجِيَّةُ قَائِمَةً (وَاقِعًا أَوْ حُكْمًا)؛ كَأَحْكَامِ الْمَوارِيثِ وَالْعِدَّةِ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ ﴾ (البقرة).

أَمَّا حِينَ تَنْقَطِعُ الْعَلَاقَةُ الزَّوْجِيَّةُ بِطَلَاقٍ أَوْ إِيلَاءٍ، فَالْأَحْكَامُ مُتَعَلِّقَةٌ بِالنِّسَاءِ لَا بِالزَّوَاجِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ ﴾ (البقرة).

وَفِي آيَاتِ الظِّهَارِ تُجَادِلُ مُسْلِمَةٌ فِي زَوْجِهَا، حَيْثُ تَشْكُو مُظَاهَرَتَهُ مِنْهَا وَالزَّوْجِيَّةُ قَائِمَةٌ، وَيَنْزِلُ الْحُكْمُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ﴾ (المجادلة:٣) مِنْ حَيْثُ تَعْطِيلُ هَذِهِ الزَّوْجِيَّةِ بِالظِّهَارِ.

هَذِهِ بَعْضُ مَظَاهِرِ الْإِعْجَازِ اللُّغَوِيِّ وَالْبَيَانِيِّ فِي الْقُرْآنِ، الَّتِي اعْتَرَفَ بِهَا الْكَثِيرُونَ حَتَّى مِنْ نَصَارَى الْعَصْرِ الْحَدِيثِ، مِثْلُ الدُّكْتُورِ مَارِدوس[1] الَّذِي تَرْجَمَ اثْنَتَيْنِ وَسِتِّينَ سُورَةً مِنَ الْقُرْآنِ، وَقَالَ: « أَمَّا أُسْلُوبُ الْقُرْآنِ فَهُوَ أُسْلُوبُ

---

١) جوزيف شارل ماردوس Joseph Charle Mardeus (١٨٦٨-١٩٤٩م): طبيب ومستشرق فرنسي، ولد بالقاهرة، ورحل إلى باريس، فدرس فيها الطب، وترجم معاني (القرآن الكريم) إلى الفرنسية، وكتاب (ألف ليلة وليلة). انظر: المستشرقون - نجيب العقيقي (١/ ٢٤١).

الْخَالِقِ جَلَّ وَعَلَا؛ وَالْحَقُّ الْوَاقِعُ أَنَّ أَكْثَرَ الْكُتَّابِ شَكًّا وَارْتِيَابًا قَدْ خَضَعُوا لِسُلْطَانِ تَأْثِيرِهِ»(١).

* **فصل: في الإعْجَاز الْبَيَانِيِّ فِي سُنَّتِهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

وقد سَبَقَ بَيَانُ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعطِيَ جَوَامِعَ الْكَلِمِ، فَكانت ألفاظه الْقَلِيلة تَدُلُّ عَلَى مَعَانٍ كَثِيرَةٍ، كَقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **{ الصَّوْمُ جُنَّةٌ }** ، وَقَوْلِهِ: **{ كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ }** ، وَقَوْلِهِ: **{ لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ }**، وَغَيْرُ ذَلِكَ كَثِيرٌ جِدًّا.

***

١) مجلة المنار - محمد رشيد رضا (٣٣/ ٢٨٢).

الْمَبْحَثُ الثَّانِي

الإِعْجَازُ التَّشْرِيعِيُّ

الْقُرْآنُ مُعْجِزٌ بِتَشْرِيعَاتِهِ وَقَوَانِينِهِ الَّتِي تَأْخُذُ بِيَدِ الْبَشَرِيَّةِ لِلْخَيْرِ وَالْهِدَايَةِ، فَهُوَ شَامِلٌ لِلدِّينِ وَالدُّنْيَا، وَالْعَقِيدَةِ وَالشَّرِيعَةِ، وَالْآدَابِ وَالْمُعَامَلَاتِ، وَهُوَ يُسْرٌ لَا حَرَجَ فِيهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾(المائدة:٦).

لَمْ يَتَوَقَّفِ الْإِعْجَازُ التَّشْرِيعِيُّ لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ عِنْدَ الْأَحْوَالِ الشَّخْصِيَّةِ فَقَطْ، وَإِنَّمَا تَعَدَّى ذَلِكَ إِلَى السِّيَاسَةِ وَالِاقْتِصَادِ، وَسَائِرِ شُئُونِ الْحَيَاةِ.

وَلَقَدْ أَوْضَحَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ أَنَّهُ مَا مِنْ شَيْءٍ يَتَعَلَّقُ بِالْبَشَرِ، وَاحْتِيَاجَاتِهِمُ الْقَانُونِيَّةِ وَالدُّسْتُورِيَّةِ وَالتَّشْرِيعِيَّةِ، إِلَّا وَجَاءَ بِهِ كَامِلًا عَلَى أَفْضَلِ وَجْهٍ، وَأَتَمِّ صُورَةٍ، قَالَ تَعَالَى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾(الأنعام:٣٨).

فَالتَّشْرِيعُ الْإِسْلَامِيُّ تَشْرِيعٌ كَامِلٌ، وَهَذَا فِي حَدِّ ذَاتِهِ إِعْجَازٌ يَدُلُّ عَلَى عَظَمَتِهِ وَسُمُوِّهِ، وَتَبَايُنِهِ عَنْ قَوَانِينِ الْبَشَرِ؛ الَّتِي تَخْتَلِفُ مِنْ زَمَنٍ إِلَى زَمَنٍ، بَلْ إِنَّ هُنَاكَ قَوَانِينَ تَخْتَلِفُ مِنْ عَامٍ إِلَى عَامٍ وَمِنْ شَهْرٍ إِلَى شَهْرٍ، وَمِنْ بَلَدٍ لِآخَرَ، وَارْجِعْ إِلَى قَوَانِينِ الْعُقُوبَاتِ فِي الْوِلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ الْأَمْرِيكِيَّةِ، سَتَجِدُهَا مُخْتَلِفَةً مِنْ وِلَايَةٍ لِأُخْرَى، فَهَذِهِ تَرَى وُجُوبَ تَطْبِيقِ عُقُوبَةِ الْإِعْدَامِ فِي حَقِّ الْجَانِي، وَتِلْكَ تَرَى فِي الْجَرِيمَةِ ذَاتِهَا أَنَّ عُقُوبَةَ الْأَشْغَالِ الشَّاقَّةِ الْمُؤَبَّدَةِ هِيَ الْعُقُوبَةُ الْمُسْتَحَقَّةُ لِلْجَانِي، لَكِنَّ التَّشْرِيعَ الْقُرْآنِيَّ تَشْرِيعٌ واضح لَا لَبْسَ فِيهِ، صَالِحٌ كُلَّ الصَّلَاحِ، فَلَا ضَيْرَ أَوْ ضَرَرَ أَوْ خَلَلَ فِيهِ.

وَالْأَمْثِلَةُ الْقُرْآنِيَّةُ التَّشْرِيعِيَّةُ الَّتِي تُدَلِّلُ عَلَى صَلَاحِيَتِهِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ كَثِيرَةٌ لَا تُحْصَى، مِنْهَا: نِظَامُ الْمِيرَاثِ الَّذِي مَا مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا وَعَدَّلَتْ فِي أَنْظِمَةِ مَوَارِيثِهَا

عَشَرَاتِ الْمَرَّاتِ؛ لَكِنَّ آيَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي هَذَا الْمِضْمَارِ صَالِحَةٌ ثَابِتَةٌ مُنْذُ نُزُولِ الْقُرْآنِ وَحَتَّى يَوْمِنَا هَذَا.

وَتَتَّضِحُ أَوْجُهُ الْإِعْجَازِ التَّشْرِيعِيِّ لِلْمِيرَاثِ فِي الْقُرْآنِ إِذَا مَا قَارَنَّاهُ بِالْأَنْظِمَةِ الْقَدِيمَةِ وَالْغَرْبِيَّةِ الْحَدِيثَةِ:

فَعِنْدَ الرُّومَانِ نَجِدُ تَشَابُهًا كَبِيرًا مَعَ نِظَامِ الْإِسْلَامِ؛ إِذْ كَانَ أَسَاسُ الْمِيرَاثِ رَاجِعٌ إِلَى الْقَرَابَةِ، وَجَعَلُوا الْقَرَابَةَ شَامِلَةً لِلْفُرُوعِ (أَيْ: الْأَبْنَاءِ وَأَبْنَاءِ الْأَبْنَاءِ)، لَكِنَّهُمْ لَمْ يَنْظُرُوا إِلَى سَبَبِ الزَّوْجِيَّةِ، وَكَانَ مِيرَاثُ الْبِنْتِ شَكْلِيًّا فَقَطْ؛ لِأَنَّهُ يَعُودُ إِلَى إِخْوَتِهَا، ولَمْ يُدْخِلُوا الْحَجْبَ فِي الْفُرُوعِ، ولَمْ يُوَرِّثُوا الْأُصُولَ (الْأَبَ وَالْجَدَّ وَمَنْ عَلَا) مَعَ الْفُرُوعِ، بَيْنَمَا يُوَرِّثُ الْإِسْلَامُ الْأُصُولَ مَعَ الْفُرُوعِ، وَيَجْعَلُ الزَّوْجِيَّةَ مِنْ أَسْبَابِ الْمِيرَاثِ.

وَأَمَّا نِظَامُ الْمِيرَاثِ عِنْدَ الْيَهُودِ فَنَجِدُهُمْ قَدْ وَرَّثُوا الِابْنَ الْأَكْبَرَ فَقَطْ، وَإِلَّا انْتَقَلَ الْمِيرَاثُ إِلَى الْفَرْعِ الْمُؤَنَّثِ، وَإِلَّا فَإِلَى الْأَبِ، وَإِلَّا فَإِلَى الْجَدِّ، وَإِلَّا فَالْإِخْوَةُ، وَهُمْ لَا يُوَرِّثُونَ أَحَدَ الزَّوْجَيْنِ مِنَ الْآخَرِ؛ حَتَّى لَا تَخْرُجَ الثَّرْوَةُ مِنْ نِطَاقِ الْأُسْرَةِ، لَكِنْ يُوَرِّثُونَ الزَّوْجَ مِنْ زَوْجَتِهِ فَقَطْ، وَيَكُونُ هُوَ الْوَارِثَ الْوَحِيدَ لَهَا.

وَإِذَا نَظَرْنَا إِلَى نِظَامِ الْمِيرَاثِ عِنْدَ الْغَرْبِ وَجَدْنَا أَنَّ النِّظَامَ الْفَرَنْسِيَّ هُوَ أَقْرَبُ النُّظُمِ الْغَرْبِيَّةِ لِلْإِسْلَامِ؛ خَاصة فِي النَّظَرِ إِلَى أَسْبَابِ الْمِيرَاثِ، وَلَكِنْ يَمْتَازُ نِظَامُ الْإِسْلَامِ بِأَنَّهُ وَرَّثَ الزَّوْجَيْنِ مَعَ وُجُودِ الْفَرْعِ الْوَارِثِ الْمُذَكَّرِ وَالْمُؤَنَّثِ، وَإِنْ كَانَ قَدْ أَعْطَاهُمْ أَقَلَّ مِمَّا كَانُوا يُعْطَوْنَ عِنْدَ عَدَمِ وُجُودِهِمْ، أَمَّا النِّظَامُ الْفَرَنْسِيُّ فَلَمْ يَجْعَلْ لِلزَّوْجِ مِيرَاثًا فِي تَرِكَةِ الزَّوْجَةِ، إِنَّمَا جَعَلَ لَهُ الْحَقَّ فِي اسْتِغْلَالِ قَدْرٍ مِنَ التَّرِكَةِ لِيَظَلَّ مُحَافِظًا عَلَى مُسْتَوَاهُ الِاجْتِمَاعِيِّ.

وَبِالنِّسْبَةِ لِلنِّظَامِ الْإِنْجِلِيزِيِّ فَهُمْ لَا يُوَرِّثُونَ أَحَدَ الزَّوْجَيْنِ مِنَ الْآخَرِ، وَلَا يُوَرِّثُونَ الْأُصُولَ مَعَ الْفُرُوعِ، وَيُوَرِّثُونَ الِابْنَ الْأَكْبَرَ وَيُقَدِّمُونَهُ عَلَى الْجَمِيعِ.

وَالنِّظَامُ الْأَلْمَانِيُّ أَقْرَبُ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَأَقْرَبُ إِلَى الْقَانُونِ الْفَرَنْسِيِّ، وَلَكِنَّهُ سَوَّى بَيْنَ الْبِنْتِ وَالْوَلَدِ، كَمَا أَنَّهُمْ يُوَرِّثُونَ ذَوِي الْأَرْحَامِ كَالْعَمَّاتِ وَالْأَخْوَالِ وَالْخَالَاتِ(١).

وَقَدْ شَهِدَ بَعْضُ الْمُنْصِفِينَ مِنْ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ لِهَذَا النِّظَامِ بِالتَّفَرُّدِ وَالتَّمَيُّزِ؛ وَمِنْ هَؤُلَاءِ: (فُون كريمر)، حَيْثُ قَالَ: « إِنَّ قَانُونَ الْمِيرَاثِ الْإِسْلَامِيَّ نَوْعٌ أَصِيلٌ مُمْتَازٌ مِنَ الْقَانُونِ الْإِسْلَامِيِّ ».

وَشَهِدَ آخَرَانِ، هُمَا (جانار) و(بري) بِرَوْعَةِ الآثَارِ الَّتِي مَنَحَهَا نِظَامُ الْمِيرَاثِ فِي الْإِسْلَامِ؛ فَيَقُولَانِ فِي كِتَابَيْهِمَا (الاقتصاد الهندي): «بِالرَّغْمِ مِنْ عَدَمِ الْقَوْلِ بِالْمُشَارَكَةِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنَّهُ يُعْطِي السِّيَادَةَ الْكَامِلَةَ لِلْمَالِكِ عَلَى أَمْلَاكِهِ الْمَوْرُوثَةِ وَالْمُكْتَسَبَةِ مَا دَامَ عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ، وَأَمَّا بَعْدَ الْمَوْتِ فَإِنَّهَا تَنْتَقِلُ إِلَى أَنْوَاعٍ مِنَ الْوَرَثَةِ أَكْثَرَ مِمَّنْ يُعَيِّنُهُمُ الْقَانُونُ الْهِنْدِيُّ »(٢).

وَتَتَمَلَّكُ الْقَارِئَ الدَّهْشَةُ وَالْإِعْجَابُ إِذَا عَلِمَ أَنَّ الْقُرْآنَ وَالْإِسْلَامَ يَسْتَهْدِفَانِ

---

١) مقال بعنوان: "قراءة موحدة في فلسفة الميراث قبل الإسلام وبعده"، عبد الوهاب محمد الجيوري - مجلة دنيا الرأي الإلكترونية.

٢) "الإسلام والاشتراكية" - ميرزا محمد حسين - ترجمة: عبد الرحمن أيوب ص (٢٢٢)، نقلًا عن كتاب "الميراث والوصية ودراسات قرآنية" للدكتور محمد شريف.

مِنْ وَرَاءِ تَشْرِيعِ نِظَامِ الْمِيرَاثِ أَمْرَيْنِ مُهِمَّيْنِ:

الْأَوَّلُ: يَكْمُنُ فِي تَفْتِيتِ الثَّرَوَاتِ؛ وَيَتَّضِحُ مِنْ ذَلِكَ عِدَّةُ أُمُورٍ لَعَلَّ أَهَمَّهَا:

- تَقْسِيمُ التَّرِكَاتِ أَثْلَاثًا وَأَرْبَاعًا وَأَثْمَانًا، وَمِنَ النَّادِرِ أَنْ يَنْفَرِدَ وَاحِدٌ بِالتَّرِكَةِ، ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾﴾ (النساء).

- نَقْلُ أَجْزَاءٍ مِنَ الثَّرَوَاتِ مِنْ أُسْرَةٍ إِلَى أُسْرَةٍ عَنْ طَرِيقِ الزَّوْجِيَّةِ، وَقَدْ سَاوَى الْإِسْلَامُ بَيْنَ أَتْبَاعِهِ؛ فَقَدْ يَتَزَوَّجُ الْغَنِيُّ فَقِيرَةً وَالْعَكْسُ؛ وَهَذَا مَا يُسَاعِدُ عَلَى نَقْلِ أَجْزَاءٍ مِنَ الثَّرَوَاتِ وَتَدَاوُلِهَا.

فَالْغَنِيُّ الْيَوْمَ بَعْدَ جِيلٍ أَوْ جِيلَيْنِ تَنْتَقِلُ ثَرْوَتُهُ إِلَى أَوْلَادِهِ وَأَحْفَادِهِ وَأَقَارِبِهِ، وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فِي جِيلٍ مِنَ الْأَجْيَالِ، فَقَدْ يُوجَدُ مِنْ أَوْلَادِهِ فِي الْجِيلِ الثَّانِي أَوْ فِي الْجِيلِ نَفْسِهِ مَنْ يَنْتَقِلُ إِلَى الطَّبَقَةِ الْمُتَوَسِّطَةِ؛ بِسَبَبِ وَفَاةِ قَرِيبٍ، أَوْ تَزَوُّجِهِ بِمَنْ كَانَ لَهَا مَالٌ، وَرُبَّمَا صَارَ مِنْ كِبَارِ الْأَثْرِيَاءِ(١).

وَتَأْتِي الْوَصِيَّةُ، وَهِيَ تَصَرُّفٌ مُضَافٌ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، فَتَقُومُ بِدَوْرٍ اجْتِمَاعِيٍّ كَبِيرٍ فِي مَجَالِ تَحْقِيقِ التَّضَامُنِ الِاجْتِمَاعِيِّ، وَقَدْ حَدَّدَهَا جَلَّ وَعَلَا بِأَلَّا تَزِيدَ عَلَى الثُّلُثِ؛ حَتَّى لَا تَجُورَ عَلَى نَصِيبِ الْوَرَثَةِ، وَاشْتَرَطَ الشَّرْعُ أَلَّا يَكُونَ الْغَرَضُ مِنْهَا الْإِضْرَارَ

---

١) بحث بعنوان: "الإعجاز التشريعي لنظام الميراث في القرآن الكريم وأثره الاقتصادي والاجتماعي" أحمد يوسف سليمان، ص (١٢٥، ١٢٦)، مقدَّم للمؤتمر العالمي الثامن للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، وزارة الأوقاف الكويتية.

بِالْوَرَثَةِ، وَأَنْ تَكُونَ فِي مَعْرُوفٍ. أَيْ: فِي جِهَةٍ مِنْ جِهَاتِ الْبِرِّ، فَالْإِنْسَانُ قَدْ يَكُونُ رَاغِبًا فِي مُكَافَأَةِ مَنْ أَحْسَنُوا إِلَيْهِ، وَكَذَلِكَ قَدْ يَرْغَبُ الْإِنْسَانُ فِي إِعْطَاءِ جُزْءٍ مِنْ ثَرْوَتِهِ لِأَحَدِ أَقْرِبَائِهِ مِنْ غَيْرِ الْوَرَثَةِ؛ لِيُسَاعِدَهُ عَلَى حَيَاةٍ كَرِيمَةٍ، وَقَدْ يَرْغَبُ فِي اسْتِمْرَارِ مُسَاعَدَةِ بَعْضِ أَبْنَاءِ مُجْتَمَعِهِ الْفُقَرَاءِ كَمَا كَانَ يُسَاعِدُهُمْ فِي حَيَاتِهِ، فَإِنَّهُ يُحَقِّقُ ذَلِكَ عَنْ طَرِيقِ الْوَصِيَّةِ(١).

وَإِنَّ مِمَّا يُدَلِّلُ عَلَى عَظَمَةِ التَّشْرِيعِ الْقُرْآنِيِّ أَنَّهُ أَثْبَتَ قُدْرَتَهُ وَشُمُولِيَّتَهُ عِنْدَ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ؛ وَفِي بَعْضِ الدُّوَلِ الْأُورُبِيَّةِ الْمُتَقَدِّمَةِ فِي التَّشْرِيعِ وَالْقَانُونِ:

فَفِي بِرِيطَانْيَا قَالَتْ صَحِيفَةُ (الديلي ميل)(٢): إِنَّ مَا لَا يَقِلُّ عَنْ (٨٥) مَحْكَمَةً بِرِيطَانِيَّةً تُطَبِّقُ أَحْكَامَ الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي الْمَمْلَكَةِ الْمُتَّحِدَةِ، وَأَشَارَتِ الصَّحِيفَةُ إِلَى أَنَّ هَذَا الرَّقْمَ أَعْلَى (١٧) مَرَّةً مِنَ السَّابِقِ، وَأَكَّدَتْ دِرَاسَةٌ أَجْرَاهَا الْأَكَادِيمِيُّ الْمُتَخَصِّصُ بِالشُّئُونِ الْإِسْلَامِيَّةِ (دينيس ماكيون) أَنَّ هُنَاكَ مَا لَا يَقِلُّ عَنْ (٨٥) مَحْكَمَةً تُطَبِّقُ الشَّرِيعَةَ الْإِسْلَامِيَّةَ تَعْمَلُ فِي بِرِيطَانْيَا، وَأَشَارَتِ الدِّرَاسَةُ إِلَى أَنَّ الْقَوَانِينَ الْقَائِمَةَ عَلَى الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ آخذة في الانتشار.

وَأَكَّدَ رَئِيسُ أَسَاقِفَةِ كانتر بري (روان وليامز) أَنَّ تَطْبِيقَ أَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي بِرِيطَانْيَا أَمْرٌ لَا مَفَرَّ مِنْهُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، بَيْنَمَا أَعْلَنَ لورد فيليبس رئيس القضاء البريطاني في يوليو ٢٠٠٨ م أنه يجوز تطبيق الشريعة الإسلامية لتسوية

---

١) المصدر السابق ص (١٢٧، ١٢٨).

٢) الصادرة بتاريخ ٢٩ يونيو ٢٠٠٩ م.

الخلافات الزوجية، والنزاعات المالية(١).

وَفِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالْأَزْمَةِ الْعَالَمِيَّةِ فَقَدْ أَثْبَتَ التَّشْرِيعُ الِاقْتِصَادِيُّ فِي الْقُرْآنِ قُدْرَتَهُ عَلَى مُوَاجَهَةِ أَيِّ تَحَدِّيَاتٍ، وَلَقَدْ مَدَحَتْهُ الْكَثِيرُ مِنَ الدُّوَلِ وَالْمُنَظَّمَاتِ الْأُورُبِّيَةِ؛ فَقَدْ أَشَادَتْ دِرَاسَةٌ أَعَدَّهَا مَرْكَزُ أَبْحَاثِ الْكُونجرس الْأَمْرِيكِي عَنِ "التَّمْوِيلِ الْإِسْلَامِيِّ" بِالْبُنُوكِ الْإِسْلَامِيَّةِ؛ لِكَوْنِهَا "أَكْثَرَ صَلَابَةً فِي مُوَاجَهَةِ التَّرَاجُعِ الِاقْتِصَادِيِّ الْعَالَمِيِّ، وَالْأَزْمَةِ الْمَالِيَّةِ الدَّوْلِيَّةِ مُقَارَنَةً بِالْبُنُوكِ التَّقْلِيدِيَّةِ"، وَأَشَارَتِ الدِّرَاسَةُ إِلَى اعْتِقَادِ كَثِيرٍ مِنَ الْمُرَاقِبِينَ بِأَنَّ "التَّمْوِيلَ الْإِسْلَامِيَّ يُمَثِّلُ عَجَلَةً لِلتَّعَافِي مِنَ الْأَزْمَةِ الْمَالِيَّةِ الدَّوْلِيَّةِ"، كَمَا تَوَقَّعَتِ الدِّرَاسَةُ بِأَنَّ "تعزُّزُ صِناعَةُ البُنوكِ الإِسْلامِيَّةِ مَكَانَتَها في السُّوقِ الدَّوْلِيِّ في ظِلِّ بَحْثِ المُستَثمِرينَ والشَّرِكاتِ عنْ مَصادِرَ بَديلَةٍ لِلتَّمويلِ" خلال الأزمة الراهنة، وفي المستقبل(٢).

بَلْ إِنَّ الْمُؤَسَّسَةَ الْمَسِيحِيَّةَ الْكُبْرَى فِي الْعَالَمِ (الْفَاتِيكَان) قَدْ أَثْنَتْ عَلَى التَّشْرِيعِ الِاقْتِصَادِيِّ فِي الْإِسْلَامِ؛ لِكَوْنِهِ يَحْمِلُ مَبَادِئَ أَخْلَاقِيَّةً سَامِيَةً(٣).

كُلُّ هَذَا لِنَعْلَمَ أَنَّ التَّشْرِيعَ الْإِسْلَامِيَّ تَشْرِيعٌ رَبَّانِيٌّ خَالِدٌ يَصْلُحُ لِلْمَاضِي وَالْحَاضِرِ وَالْمُسْتَقْبَلِ، وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لَوْنٌ مِنَ الْإِعْجَازِ الْإِلَهِيِّ لِلْبَشَرِ(٤).

---

١) www.dailymail.co.uk/news/aeticle-١١٩٦١٦٥/btitain-٨٥-shaeia-(couets-The-astonishing-speead-Islamic-justice-closed-dooes.html

٢) موقع محيط الإخباري.

٣) جريدة الوطني الإماراتية الإنجليزية .

٤) انظر - تكرُّمًا - كتاب "مبادئ إسلامية في المجتمعات الغربية" للمؤلف، ط القاهرة.

الْمَبْحَثُ الثَّالِثُ

الإِعْجَـازُ الْعِلْمِـيُّ.

وَهُوَ إِعْجَازٌ لَمْ يَتَكَلَّمْ عَنْهُ عُلَمَاؤُنَا قَدِيمًا؛ إِذْ كَانَ جُلُّ اهْتِمَامِهِمْ يَدُورُ حَوْلَ إِعْجَازِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مِنْ نَاحِيَةِ بَلَاغَتِهِ، وَنَظْمِهِ، وَتَارِيخِهِ، وَلُغَتِهِ.

وَالْمَقْصُودُ بِذَلِكَ: اشْتِمَالُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ عَلَى أَلْوَانٍ مِنْ الْقَوَاعِدِ الْعِلْمِيَّةِ التَّطْبِيقِيَّةِ الَّتِي تَحَيَّرَ كَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ فِي وُجُودِهَا وَاكْتِشَافِهَا.

وَقَدِ اشْتَمَلَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ عَلَى إِشَارَاتٍ عِلْمِيَّةٍ سِيقَتْ مَسَاقَ الْهِدَايَةِ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ كِتَابًا عِلْمِيًّا خَالِصًا، وَمِثَالُ ذَلِكَ مَا ذَكَرَهُ الْقُرْآنُ عَنِ التَّلْقِيحِ الخلطي فِي النَّبَاتِ، الَّذِي يَكُونُ التَّلْقِيحُ فِيهِ بِالنَّقْلِ، وَمِنْ وَسائِلِ ذَلِكَ الرِّيَاحُ، وَهُوَ مَا ذَكَرَهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ ﴾ (الحجر:٢٢).

• وَمِنَ الْأَمْثِلَةِ الْعِلْمِيَّةِ الَّتِي أَثْبَتَ صِحَّتَهَا الْعِلْمُ الْحَدِيثُ (تَمَدُّدُ الْكَوْنِ)، فَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ (الذاريات).

هَذِهِ الْآيَةُ الْقُرْآنِيَّةُ كَشَفَتْ أَنَّ الْكَوْنَ يَتَوَسَّعُ أَوْ يَتَمَدَّدُ، وَهِيَ النَّتِيجَةُ نَفْسُهَا الَّتِي خَلُصَ إِلَيْهَا الْعِلْمُ فِي أَيَّامِنَا هَذِهِ، فَحَتَّى فَجْرِ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ كَانَتِ النَّظْرَةُ الْعِلْمِيَّةُ الْوَحِيدَةُ السَّائِدَةُ فِي هَذَا الْعَالَمِ أَنْ الْكَوْنَ لَهُ طَبِيعَةٌ ثَابِتَةٌ، وَهُوَ مَوْجُودٌ مُنْذُ الْأَزَلِ، لَكِنَّ الْأَبْحَاثَ الَّتِي أُجْرِيَتْ كَشَفَتْ أَنَّ الْكَوْنَ فِي الْحَقِيقَةِ لَهُ بِدَايَةٌ، وَأَنَّهُ يَتَمَدَّدُ بِانْتِظَامٍ.

فَفِي بِدَايَةِ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ :

أَثْبَتَ عَالِمُ الْفِيزْيَاءِ وَالْفَلَكِ الْبِلْجِيكِيُّ جُورْجُ لُومِيتَر(١) نَظَرِيًّا بِأَنَّ الْكَوْنَ فِي حَرَكَةٍ دَائِمَةٍ، وَأَنَّهُ يَتَمَدَّدُ، وَقَدْ أَكَّدَ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ عَالِمُ الْفَلَكِ الْأَمْرِيكِيُّ أَدْوِينُ هبل(٢) عام (١٩٢٩م)، حَيْثُ أَثْبَتَ أَنَّ النُّجُومَ وَالْمَجَرَّاتِ تَتَحَرَّكُ بَعِيدًا عَنْ بَعْضِهَا بِشَكْلٍ دَائِمٍ، وَهَذَا يَعْنِي أَنَّ الْكَوْنَ الَّذِي يَتَحَرَّكُ فِيهِ كُلُّ شَيْءٍ بِشَكْلٍ دَائِمٍ بَعِيدًا عَنْ بَعْضِهِ الْبَعْضِ هُوَ كَوْنٌ مُتَمَدِّدٌ بِشَكْلٍ دَائِمٍ(٣).

• وَمِنَ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ الْمُعْجِزَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ ﴾ (يس). فَالْفِعْلُ (تَجْرِي) فِيهِ إِعْجَازٌ عَظِيمٌ؛ لِأَنَّهُ لَا يَدُلُّ عَلَى حَرَكَةِ الشَّمْسِ الظَّاهِرِيَّةِ الَّتِي يُبْصِرُهَا النَّاسُ عِنْدَمَا تُشْرِقُ، بَلْ هُوَ يَدُلُّ عَلَى حَرَكَةٍ وَاقِعِيَّةٍ أَثْبَتَتْهَا الْأَرْصَادُ؛ حَيْثُ تَقُولُ الْمَوْسُوعَةُ الْفَلَكِيَّةُ: "إِنَّ الشَّمْسَ تَدُورُ حَوْلَ مِحْوَرِهَا مَرَّةً كُلَّ خَمْسَةٍ وَعِشْرِينَ يَوْمًا"(٤). كَمَا قَدَّرَتْ سُرْعَةَ مَجَرَّتِنَا الْأَرْضِيَّةِ وَضِمْنَهَا الشَّمْسُ وهي تبتعد عن غيرها من المجرات في الكون بمقدار (٩٨٠) كيلو متر في الثانية(٥).

---

١) جورج لوميتر George Le Maitee (١٨٨٤- ١٩٦٦): عالم فضاء وفلك بلجيكي، صاغ نظرية الانفجار الكبير، والتي تتحدث عن بدء نشوء الكون من انفجار كارثي كبير.

٢) إدوين هبل Edwin Hubble (١٨٨٩- ١٩٥٣): عالم فلك أمريكي ولد عام ١٨٨٩م، أثبت وجود مجرات أخرى عدا المجرة اللبنية.

٣) المعجزات القرآنية هارون يحيى: ص (١٢، ١٣) بتصرف.

٤) الموسوعة الفلكية خليل بدوي: ص (٢١).

٥) الشمس إبراهيم غوري: ص (١٨).

• وَمِنْ وُجُوهِ الْإِعْجَازِ - أَيْضًا- قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾﴾ (الرحمن). حَيْثُ أَثْبَتَتِ الدِّرَاسَاتُ أَنَّ الْبَحْرَ الْأَبْيَضَ الْمُتَوَسِّطَ فِي لِقَائِهِ مَعَ الْمُحِيطِ الْأَطْلَسِيِّ عِنْدَ مَضِيقِ جَبَلِ طَارِقٍ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ، وَمِنْ خِلَالِ التَّحْلِيلِ الْكِيمْيَائِيِّ لِمِيَاهِ كُلٍّ مِنْهُمَا وَجَدُوا أَنَّ الْبَحْرَ الْمُتَوَسِّطَ أَكْثَرُ مُلُوحَةً مِنَ الْأَطْلَسِيِّ، وَأَكْثَرُ حَرَارَةً، وَيَخْتَلِفُ كُلٌّ مِنْهُمَا فِي الْكَائِنَاتِ الْحَيَّةِ(١).

كَمَا نَشَرَتْ بَعْثَةُ السير جون إمري مع بعثة الجامعة المصرية بعض الملاحظات حَوْلَ الْمِيَاهِ فِي خَلِيجِ الْعَقَبَةِ، وَالَّتِي تَخْتَلِفُ فِي خَوَاصِّهَا وَتَرْكِيبِهَا الْكِيمْيَائِيِّ وَالطَّبِيعِيِّ عَنِ الْمِيَاهِ فِي الْبَحْرِ الْأَحْمَرِ(٢).

• وَمِنَ الْآيَاتِ الْمُعْجِزَاتِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾﴾ (النبأ). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ (النحل).

فَقَدْ تَوَصَّلَ عُلَمَاءُ الجيولوجيا فِي الْعَصْرِ الْحَدِيثِ إِلَى أَنَّ تَحْتَ الْجَبَلِ عرقًا وامتدادًا قد غرس في الطبقة اللزجة التي تحت طبقة الصخور، وقد جعل الله هذا الامتداد ماسكًا للقارات من أن تطوف أثناء دوران الأرض، ولم يتأكد الباحثون من هذه الحقيقة إلا عام (١٩٥٦م)(٣)، وَكَذَلِكَ أَثْبَتَتِ الدِّرَاسَاتُ أَنَّ كُلَّ قَارَةٍ بِهَا جبالٌ تتميَّزُ بها، وَأَنَّ ارْتِفَاعَ الْجِبَالِ يَتَنَاسَبُ وَمَكَانَهَا فِي الْأَرْضِ، وَنَوْعَ الصُّخُورِ

---

١) الإعجاز القرآني في ضوء الاكتشاف العلمي الحديث مروان التفتنازي: ص (٣٨٤).
٢) لفتات علمية من القرآن يعقوب يوسف: ص (٥٧).
٣) كتاب التوحيد عبد المجيد الزنداني: ص (٧٢).

الْمُكَوِّنَةِ لَهَا، وَطَبِيعَةَ الْأَرْضِ حَوْلَهَا، كَمَا وَجَدُوا أَنَّ تَوْزِيعَ الْجِبَالِ عَلَى الْكُرَةِ الْأَرْضِيَّةِ إِنَّمَا قُصِدَ بِهِ حِفْظُهَا مِنْ أَنْ تَمِيدَ أَوْ تَحِيدَ(١)، وَقَدْ ذَكَرَ الْقُرْآنُ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ مُنْذُ أَكْثَرَ مِنْ أَلْفٍ وَأَرْبَعِمِائَةِ عَامٍ، فَصَدَقَ اللهُ وَصَدَقَ رَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

• وَلْنَنْظُرْ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ ﴾ (الطور).

وَالْمَقْصُودُ بِالْمَسْجُورِ الْمُوقَدُ أَوِ الْمُهَيَّجُ بِالنَّارِ، وَقَسَمُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِيهِ دِلَالَةٌ صَرِيحَةٌ عَلَى وُجُودِ بِحَارٍ مُسَجَّرَةٍ بِالنِّيرَانِ؛ إِذْ إِنَّ الْمَقْصُودَ بِالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ هُنَا أَنَّهُ مِنْ بِحَارِ الدُّنْيَا وَلَيْسَ الْآخِرَة، وَقَدْ شَاءَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ تَتَجَلَّى هَذِهِ الْحَقِيقَةُ الْقُرْآنِيَّةُ فِي عَصْرِ الْعِلْمِ، وَيَصِلُ عُلَمَاءُ الْبِحَارِ إِلَى التَّأَكُّدِ الْجَازِمِ مِنْ وُجُودِ بَرَاكِينَ مُلْتَهِبَةٍ بِالنَّارِ فِي الْقِيعَانِ.

وَعَقَدَ (جورج جامو) فِي كِتَابِهِ (كَوْكَبٌ اسْمُهُ الْأَرْضُ) فَصْلا فِي كِتَابِهِ بِعُنْوَانِ: "جَهَنَّمُ تَحْتَ أَقْدَامِنَا"، وَتَحَدَّثَ فِيهِ عَنْ تَسْجِيرِ قَاعِ الْبَحْرِ، وَالنَّارِ وَالْبَرَاكِينِ النَّشِطَةِ فِيهِ، يَقُولُ فِي مَطْلَعِهِ: « ازْدِيَادُ الْحَرَارَةِ مَعَ الْعُمْقِ: إِنَّ سُحُبَ الدُّخَانِ الْأَسْوَدِ الْمُتَصَاعِدَةَ مِنْ فُوَّهَاتِ الْبَرَاكِينِ الثَّائِرَةِ، وَالْحِمَمَ الْمُلْتَهِبَةَ الْمُتَدَفِّقَةَ عَلَى جَوَانِبِهَا، وَعُيُونَ الْمِيَاهِ السَّاخِنَةِ، كُلُّ هَذَا دَعَا الْأَقْدَمِينَ إِلَى الِاعْتِقَادِ بِوُجُودِ نَارٍ مُتَّقِدَةٍ لَيْسَتْ بَعِيدَةً تَحْتَ أَقْدَامِنَا أُعِدَّتْ لِلْخَاطِئِينَ »(٢).

وَوَجْه الْإِعْجَازِ وَاضِحٌ فَلَقَدْ أَوْضَحَ الْقُرْآنُ أَنَّ قَاعَ الْبِحَارِ مُسَجَّرَةٌ بِالنَّارِ، وَلَمْ

---

١) الإعجاز القرآني في ضوء الاكتشاف العلمي الحديث مروان التفتنازي: ص (٣٥٢).
٢) كوكب اسمه الأرض - جورج جامو: ص (٧٤).

يَكُنْ يُعْلَمُ قَبْلُ، وَمَعَ نُزُولِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ بِهَذِهِ الْحَقِيقَةِ الْعُظْمَى، حَتَّى بِدَايَةِ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ؛ حَيْثُ تَبَيَّنَ لِلْعُلَمَاءِ أَنَّ قَاعَ الْبِحَارِ مُسَجَّرَةٌ وَمُضْطَرِمَةٌ بِالنِّيرَانِ، إلا أَنَّ الْحَقَّ قَرَّرَ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ الْبَحْرِيَّةَ بِقَوْلِهِ: ﴿ **وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ۝٦** ﴾، فَمَنِ الَّذِي أَخْبَرَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَنَّ الْبَحْرَ قَاعُهُ مُلْتَهِبٌ، وَمُتَفَجِّرٌ بِالْبَرَاكِينِ الَّتِي تَقْذِفُ الْحِمَمَ النَّارِيَّةَ؟(١) إِنَّهُ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ.

• وَهُنَاكَ إِعْجَازٌ عِلْمِيٌّ آخَرُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ **وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ** ﴾ (الحديد:٢٥) ؛ فَقَدْ يَظُنُّ الْبَعْضُ أَنَّ عِبَارَةَ "أَنْزَلْنَا"، الَّتِي خَصَّ بِهَا الْحَدِيدَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، هِيَ مِنْ بَابِ الْمَجَازِ الَّذِي يُقْصَدُ بِهِ أَنَّ اللهَ خَلَقَ الْحَدِيدَ لِيَنْتَفِعَ بِهِ النَّاسُ، وَلَكِنْ عِنْدَمَا نَنْظُرُ إِلَى الْمَعْنَى الْحَرْفِيِّ لِلْكَلِمَةِ: وَهُوَ أَنَّ الْحَدِيدَ أُرْسِلَ فِيزْيَائِيًّا مِنَ السَّمَاءِ، نُدْرِكُ أَنَّ الْآيَةَ تَتَضَمَّنُ إِعْجَازًا عِلْمِيًّا فَرِيدًا؛ فَقَدْ تَبَيَّنَ مِنْ خِلَالِ الِاكْتِشَافَاتِ الْفَضَائِيَّةِ الْحَدِيثَةِ أَنَّ الْحَدِيدَ الْمَوْجُودَ فِي عَالَمِنَا قَدْ جَاءَ مِنْ نَجْمٍ ضَخْمٍ فِي الْفَضَاءِ الْخَارِجِيِّ.

فَالْمَعَادِنُ الثَّقِيلَةُ فِي الْكَوْنِ تُنْتَجُ مِنْ نَوَاةِ نَجْمٍ كَبِيرٍ؛ لِأَنَّ نِظَامَنَا الشَّمْسِيَّ لَا يَمْلِكُ التَّرْكِيبَةَ الْمُلَائِمَةَ الَّتِي تُمَكِّنُهُ مِنْ إِنْتَاجِ الْحَدِيدِ بِنَفْسِهِ؛ فَالْحَدِيدُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُنْتَجَ إِلَّا فِي نُجُومٍ أَكْبَرَ بِكَثِيرٍ مِنَ الشَّمْسِ، حَيْثُ تَصِلُ الْحَرَارَةُ إِلَى بِضْعَةِ مَلَايِينَ مِنَ الدَّرَجَاتِ، وَعِنْدَمَا تَتَعَدَّى كَمِّيَّةُ الْحَدِيدِ مُسْتَوًى مُعَيَّنًا فِي نَجْمٍ مَا، فَإِنَّهُ لَا

---

١) الإعجاز القرآني – مروان التفتنازي: ص (٣٩٠، ٣٩١).

يَسْتَطِيعُ التَّكَيُّفَ مَعَهَا، وَبِالنِّهَايَةِ يَتَفَجَّرُ وَيَتَحَوَّلُ إِلَى مَا يُسَمَّى بِالْمُسْتَعِرِ، أَوِ الْمُسْتَعِرِ الْعَظِيمِ (وَهُوَ نَجْمٌ يَتَعَاظَمُ ضِيَاؤُهُ فَجْأَةً، ثُمَّ يَخْبُو بَعْدَ بِضْعَةِ شُهُورٍ أَوْ سَنَوَاتٍ)، وَكَنَتِيجَةٍ لِهَذَا الِانْفِجَارِ تَنْتَشِرُ فِي أَرْجَاءِ الْكَوْنِ نَيَازِكُ تَحْتَوِي عَلَى الْحَدِيدِ، وَتَنْتَقِلُ إِلَى الْفَرَاغِ إِلَى أَنْ تَجْذِبَهَا الْقُوَّةُ الْجَاذِبَةُ لِلْأَجْرَامِ السَّمَاوِيَّةِ.

كُلُّ هَذَا يُظْهِرُ أَنَّ الْحَدِيدَ لَمْ يَخْرُجْ مِنَ الْأَرْضِ، بَلْ نَزَلَ إِلَى الْأَرْضِ بِوَاسِطَةِ نَيَازِكَ نَاجِمَةٍ عَنِ انْفِجَارِ نُجُومٍ فِي الْفَضَاءِ، كَمَا تُشِيرُ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ، وَمِنَ الْوَاضِحِ أَنَّ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ الْعِلْمِيَّةَ لَمْ تَكُنْ مَعْرُوفَةً عِلْمِيًّا فِي الْقَرْنِ السَّابِعِ الْمِيلَادِيِّ حِينَ كَانَ الْقُرْآنُ يُوحَى بِهِ(١).

• وَفِي آيَةٍ قُرْآنِيَّةٍ تُقْرَأُ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ (الإنسان:٢)، وَأَجْمَعَ الْمُفَسِّرُونَ كَافَّةً بِلَا اسْتِثْنَاءٍ عَلَى أَنَّ النُّطْفَةَ الْأَمْشَاجَ هِيَ حَصِيلَةُ مَاءِ الرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ، وَالْأَمْشَاجُ أَخْلَاطٌ مِنَ الْجِنْسَيْنِ، وَقَبْلَ اكْتِشَافِ الْمِجْهَرِ بَعْدَ عَصْرِ تَنْزِيلِ الْقُرْآنِ بِأَكْثَرَ مِنْ عَشَرَةِ قُرُونٍ، لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ أَحَدٌ بِتَكَوُّنِ الْجَنِينِ مِنْ بُوَيْضَةٍ مُخَصَّبَةٍ (Feetilized egg) تُمَاثِلُ "نُطْفَةً"؛ أَيْ: قُطَيْرَةَ مَاءٍ ضَئِيلَةً ذَاتَ أَخْلَاطٍ تَحْتَوِي عَلَى مُكَوِّنَاتٍ وِرَاثِيَّةٍ مِنَ الْأَبَوَيْنِ، نُسَمِّيهَا الْيَوْمَ كُرُومُوزُومَاتٍ (chromosomes).

• وَيَقُولُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ (الحجرات:١٣).

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: «بَيَّنَ اللهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّهُ خَلَقَ الْخَلْقَ مِنَ الذَّكَرِ وَالْأُنْثَى..

---

١) المعجزات القرآنية ، هارون يحيى : ص (٣٤) .

وَقَدْ ذَهَبَ قَوْمٌ مِنَ الْأَوَائِلِ إِلَى أَنَّ الْجَنِينَ إِنَّمَا يَكُونُ مِنْ مَاءِ الرَّجُلِ وَحْدَهُ، وَيَتَرَبَّى فِي رَحِمِ الْأُمِّ، وَيَسْتَمِدُّ مِنَ الدَّمِ الَّذِي يَكُونُ فِيهِ... وَالصَّحِيحُ أَنَّ الْخَلْقَ إِنَّمَا يَكُونُ مِنْ مَاءِ الرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ لِهَذِهِ الْآيَةِ؛ فَإِنَّهَا نَصٌّ لَا يَحْتَمِلُ التَّأْوِيلَ »(١).

• وَيُبَيِّنُ الْقُرْآنُ بِالتَّفْصِيلِ تَبَايُنَ أَطْوَارِ تَكَوُّنِ الْجَنِينِ فِي تَعْبِيرَاتٍ وَصْفِيَّةٍ دَقِيقَةٍ، تَتَّفِقُ تَمَامًا مَعَ الْأَطْوَارِ الْفِعْلِيَّةِ لِلْجَنِينِ؛ يَقُولُ الْعَلِيُّ الْقَدِيرُ: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ (المؤمنون).

• وَإِنَّنَا إِذَا تَأَمَّلْنَا فِي الْآيَاتِ الْعِلْمِيَّةِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، لَوَجَدْنَا أَنَّ لَهَا ظِلَالا إِعْجَازِيَّةً مُبْهِرَةً؛ فَلْنَتَأَمَّلْ فِي الْحِكْمَةِ مِنْ تَحْرِيمِ زَوَاجِ الْإِخْوَةِ مِنَ الرَّضَاعَةِ، فَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ جَعَلَ الْإِخْوَةَ مِنَ الرَّضَاعَةِ كَالْإِخْوَةِ مِنَ النَّسَبِ؛ وَمِن ثَمَّ حَرَّمَ الِارْتِبَاطَ الزَّوْجِيَّ بِالْأَخَوَاتِ مِنَ الرَّضَاعَةِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ ﴾ (النساء:٢٣).

لَقَدْ أَثْبَتَتِ الْأَبْحَاثُ الْعِلْمِيَّةُ الَّتِي أُجْرِيَتْ حَدِيثًا وُجُودَ أَجْسَامٍ فِي لَبَنِ الْأُمِّ الْمُرْضِعَةِ، الَّذِي يَتَرَتَّبُ عَلَى تَعَاطِيهِ تَكْوِينُ أَجْسَامٍ مناعية فِي جِسْمِ الرَّضِيعِ بَعْدَ

---

١) الجامع لأحكام القرآن القرطبي: (١٦/ ٣٤٢، ٣٤٣).

جُرْعَاتٍ تَتَرَاوَحُ مِنْ ثَلَاثٍ إِلَى خَمْسِ جُرْعَاتٍ... وَهَذِهِ هِيَ الْجُرْعَاتُ الْمَطْلُوبَةُ لِتَكْوِينِ الْأَجْسَامِ الْمَنَاعِيَّةِ فِي جِسْمِ الْإِنْسَانِ، حَتَّى فِي حَيَوَانَاتِ التَّجَارِبِ الْمَوْلُودَةِ حَدِيثًا، وَالَّتِي لَمْ يَكْتَمِلْ نُمُوُّ الْجِهَازِ الْمَنَاعِيِّ عِنْدَهَا... فَعِنْدَمَا تَرْضَعُ اللَّبَنَ تَكْتَسِبُ بَعْضَ الصِّفَاتِ الْوِرَاثِيَّةِ الْخَاصَّةِ بِالْمَنَاعَةِ مِنَ اللَّبَنِ الَّذِي تَرْضَعُهُ؛ وَبِالتَّالِي تَكُونُ مُشَابِهَةً لِأَخِيهَا أَوْ لِأُخْتِهَا مِنَ الرَّضَاعِ فِي هَذِهِ الصِّفَاتِ الْوِرَاثِيَّةِ، وَلَقَدْ وُجِدَ أَنْ تَكَوُّنَ هَذِهِ الْجُسَيْمَاتِ الْمَنَاعِيَّةِ يُمْكِنُ أَنْ يُؤَدِّيَ إِلَى أَعْرَاضٍ مَرَضِيَّةٍ عِنْدَ الْإِخْوَةِ فِي حَالَةِ الزَّوَاجِ(١).

وَمِنْ هُنَا نَجِدُ الْحِكْمَةَ فِي الْآيَةِ الْقُرْآنِيَّةِ الَّتِي نَحْنُ بِصَدَدِهَا؛ فِي تَحْرِيمِهَا زَوَاجَ الْإِخْوَةِ مِنَ الرَّضَاعِ، وَقَدْ حَدَّدَتْهَا السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ بِخَمْسِ رَضَعَاتٍ مُشْبِعَاتٍ(٢).

وَقَدِ اعْتَرَفَ جُلُّ عُلَمَاءِ الْغَرْبِ الْمُنْصِفِينَ بِمُعْجِزَةِ الْقُرْآنِ الْخَالِدَةِ؛ وَمِنْ هَؤُلَاءِ الْعُلَمَاءِ (إميل درمنجم) الَّذِي قَالَ عَنِ الْقُرْآنِ: « لَابُدَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ مِنْ دَلِيلٍ عَلَى رِسَالَتِهِ، وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ مُعْجِزَةٍ يَتَحَدَّى بِهَا... وَالْقُرْآنُ هُوَ مُعْجِزَةُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فَأُسْلُوبُهُ الْمُعْجِزُ وَقُوَّةُ أَبْحَاثِهِ لَا يَزَالان إِلَى يَوْمِنَا يُثِيرَانِ سَاكِنَ مَنْ يَتْلُونَهُ، وَلَوْ لَمْ يَكُونُوا مِنَ الْأَتْقِيَاءِ الْعَابِدِينَ، وَكَانَ مُحَمَّدُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَحَدَّى

---

١) موقع جديد العلم، وهو موقع أجنبي أثبت فيه الدكتور مارك سيريجان تأثير لبن الأم على الأطفال: sciencealeet.com.au/news/٢٠٠٨١١٠٢-١٦٨٧٩

٢) عن أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها قالت: « كَانَ فِيمَا أُنْزِلَ مِنَ الْقُرْآنِ: عَشْرُ رَضَعَاتٍ مَعْلُومَاتٍ يُحَرِّمْنَ، ثُمَّ نُسِخْنَ، بِخَمْسٍ مَعْلُومَاتٍ، فَتُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُنَّ فِيمَا يُقْرَأُ مِنَ الْقُرْآنِ ». رواه مسلم برقم (١٤٥٢).

الْإِنْسَ وَالْجِنَّ بِأَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ، وَكَانَ هَذَا التَّحَدِّي أَقْوَى دَلِيلٍ لِمُحَمَّدٍ عَلَى صِدْقِ رِسَالَتِهِ..."(١).

فصل : الإعجَازُ العِلْمِيُّ فِي سُنَّتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

تُعَدُّ الْإِشَارَاتُ الْعِلْمِيَّةُ الْوَارِدَةُ فِي السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ مِنْ أَبْرَزِ الدَّلَائِلِ عَلَى أَنَّ مُحَمَّدًا هُوَ خَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ؛ لِأَنَّ سَبْقَهُ الْعِلْمِيَّ فِي بِيئَةٍ لَا تَمْلِكُ مَفَاتِيحَ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ يَقْطَعُ الطَّرِيقَ أَمَامَ الْقَائِلِينَ بِأَنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ تَلَقَّى هَذَا الْعِلْمَ مِنْ بَحِيرَا، أَوْ وَرَقَةَ بْنِ نَوْفَلٍ، أَوْ مِنْ غَيْرِهِمْ، كَمَا أَنَّهُ يُثْبِتُ بِمَا لَا يَدَعُ مَجَالا لِلشَّكِّ أَنَّ الْمَصْدَرَ الْوَحِيدَ الَّذِي اسْتَقَى مِنْهُ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَعَالِيمَهُ هُوَ اللهُ جَلَّ فِي عُلَاهُ.

وَلِلتَّعَامُلِ مَعَ قَضِيَّةِ الْإِعْجَازِ الْعِلْمِيِّ فِي السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ يَجِبُ أَنْ تُرَاعَى عِدَّةُ ضَوَابِطَ، مِنْهَا:

١- اخْتِيَارُ الْأَحَادِيثِ الْمُحْتَوِيَةِ عَلَى إِشَارَاتٍ إِلَى الْكَوْنِ وَمُكَوِّنَاتِهِ وَظَوَاهِرِهِ.

٢- التَّثَبُّتُ مِنْ مَعْرِفَةِ دَرَجَةِ الْحَدِيثِ، وَاسْتِبْعَادُ كُلِّ الْأَحَادِيثِ الْمَوْضُوعَةِ.

٣- جَمْعُ الْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ فِي الْمَوْضُوعِ الْوَاحِدِ؛ لِأَنَّ بَعْضَهَا يُفَسِّرُ بَعْضًا.

٤- فَهْمُ النَّصِّ أَوِ النُّصُوصِ النَّبَوِيَّةِ وَفْقَ دِلَالَاتِ الْأَلْفَاظِ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَوَفْقَ قَوَاعِدِهَا.

٥- فَهْمُ النَّصِّ النَّبَوِيِّ فِي ضَوْءِ سِيَاقِهِ وَمُلَابَسَاتِهِ، وَفَهْمُهُ فِي نُورِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ؛

---

١) حياة محمد - إميل درمنجهم: ص (٢٨٩).

لِأَنَّ أَحَادِيثَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَارِحَةٌ لِكِتَابِ اللهِ، وَمُبَيِّنَةٌ لِدِلَالَاتِ آيَاتِهِ...(١).

٦- يَنْبَغِي أَلَّا تُؤَوَّلَ أَحَادِيثُ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِإِثْبَاتِ نَظَرِيَّةٍ عِلْمِيَّةٍ تَحْتَمِلُ الشَّكَّ وَالصَّوَابَ، وَلَكِنْ يَجِبُ التَّعَامُلُ فَقَطْ مَعَ الْحَقَائِقِ الْعِلْمِيَّةِ الثَّابِتَةِ.

• مِنْ ذَلِكَ: مَا رَوَاهُ أَبُو بُرْدَةَ عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «صَلَّيْنَا الْمَغْرِبَ مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ قُلْنَا: لَوْ جَلَسْنَا حَتَّى نُصَلِّيَ مَعَهُ الْعِشَاءَ. قَالَ: فَجَلَسْنَا، فَخَرَجَ عَلَيْنَا، فَقَالَ: **{مَا زِلْتُمْ هَهُنَا؟}** قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، صَلَّيْنَا مَعَكَ الْمَغْرِبَ، ثُمَّ قُلْنَا: نَجْلِسُ حَتَّى نُصَلِّيَ مَعَكَ الْعِشَاءَ. قَالَ: **{أَحْسَنْتُمْ}** أَوْ **{أَصَبْتُمْ}**. قَالَ: فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ وَكَانَ كَثِيرا مَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ، فَقَالَ: **{ النُّجُومِ أَمَنَةٌ لِلسَّمَاءِ، فَإِذَا ذَهَبَتِ النُّجُومُ أَتَى السَّمَاءَ مَا تُوعَدُ، وَأَنَا أَمَنَةٌ لِأَصْحَابِي، فَإِذَا ذَهَبْتُ أَتَى أَصْحَابِي مَا يُوعَدُونَ، وَأَصْحَابِي أَمَنَةٌ لِأُمَّتِي، فَإِذَا ذَهَبَ أَصْحَابِي أَتَى أُمَّتِي مَا يُوعَدُونَ }»**(٢).

وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ حَقِيقَةٌ عِلْمِيَّةٌ أَثْبَتَهَا الْعِلْمُ الْحَدِيثُ، أَلَا وَهِيَ ذَهَابُ النُّجُومِ وَانْكِدَارُهَا وَطَمْسُهَا، ثُمَّ انْفِجَارُهَا وَزَوالُهَا بِتَحَوُّلِهَا إِلَى دُخَانِ السَّمَاءِ.

وَنَظَرا لِضَخَامَةِ كُتَلِ النُّجُومِ فَإِنَّهَا تُهَيْمِنُ بِقُوَى جَذْبِهَا عَلَى كُلِّ مَا يَدُورِ فِي فَلَكِهَا مِنْ كَوَاكِبَ، وَكُوَيْكِبَاتٍ، وَأَقْمَارٍ، وَمُذَنَّبَاتٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ صِوَرِ الْمَادَّةِ، وَالنُّجُومُ

---

١) للتعرف على الضوابط التي حدَّدها العلماء لكون الحديث النبوي معتبرًا في أحاديث الإعجاز العلمي. انظر: الإعجاز العلمي في السنة النبوية زغلول النجار: ص (٢٦-٣٢).

٢) رواه مسلم ح (٢٥٣١).

تَرْتَبِطُ فِيمَا بَيْنَهَا بِالْجَاذِبِيَّةِ، وَتَتَجَمَّعُ فِي وِحْدَاتٍ كَوْنِيَّةٍ أَكْبَرَ فَأَكْبَرَ، مُرْتَبِطَةٍ فِيمَا بَيْنَهَا بِالْجَاذِبِيَّةِ أَيْضًا، فَإِذَا انْفَرَطَ عِقْدُ هَذِهِ الْقُوَى انْهَارَتِ النُّجُومُ، وَانْهَارَتِ السَّمَاءُ الدُّنْيَا بِانْهِيَارِهَا، وَانْهَارَ الْكَوْنُ كُلُّهُ بِانْهِيَارِ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، وَهُنَا تَتَّضِحُ رَوْعَةُ التَّعْبِيرِ النَّبَوِيِّ الشَّرِيفِ: { **النُّجُومِ أَمَنَةٌ لِلسَّمَاءِ، فَإِذَا ذَهَبَتِ النُّجُومُ أَتَى السَّمَاءَ مَا تُوعَدُ...** }(١).

وَوَجْهُ الْإِعْجَازِ فِي هَذَا هُوَ : مَنْ أَخْبَرَ هَذَا النَّبِيَّ بِهَذِهِ الْحَقَائِقِ الْعِلْمِيَّةِ فِي أُمَّةٍ جَاهِلَةٍ؟ إِنَّهُ اللهُ الَّذِي أَوْحَى لِنَبِيِّهِ هَذَا الْأَمْرَ.

• وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضا قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: { **إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ...** }(٢).

فَهُنَا يَمُرُّ خَلْقُ الْإِنْسَانِ بِثَلَاثِ مَرَاحِلَ وَهِيَ: النُّطْفَةُ، وَالْعَلَقَةُ، وَالْمُضْغَةُ، تَكْتَمِلُ خِلَالَ الْأَرْبَعِينَ يَوْمًا الْأُولَى مِنْ بَدْءِ عَمَلِيَّةِ الْإِخْصَابِ، وَالْمُلَاحَظَاتُ الْعِلْمِيَّةُ الدَّقِيقَةُ الَّتِي تَجَمَّعَتْ لَدَى الْعَامِلِينَ فِي حَقْلِ عِلْمِ الْأَجِنَّةِ الْبَشَرِيَّةِ تُؤَكِّدُ ذَلِكَ.

وَكَانَ بَعْضُ عُلَمَاءِ الْأَحَادِيثِ قَدْ فَهِمُوا تِلْكَ الْمُدَّةَ عَلَى أَنَّهَا ثَلَاثَةُ أَضْعَافِ ذَلِكَ- أَيْ: مِائَةٌ وَعِشْرُونَ يَوْمًا- لِأَنَّهُمْ فَهِمُوا التَّعْبِيرَ بِـ {**مِثْلِ ذَلِكَ**} فِي نَصِّ الْحَدِيثِ عَلَى أَنَّهَا تُشِيرُ إِلَى الْفَتْرَةِ الزَّمَنِيَّةِ الْمُحَدَّدَةِ بِأَرْبَعِينَ يَوْمًا لِكُلِّ مَرْحَلَةٍ مِنَ الْمَرَاحِلِ الثَّلَاثِ: النُّطْفَةِ، وَالْعَلَقَةِ، وَالْمُضْغَةِ، وَيَنْفِي ذَلِكَ الْفَهْمَ حَدِيثٌ آخَرُ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ فِيهِ: { **إِذَا مَرَّ بِالنُّطْفَةِ ثِنْتَانِ وَأَرْبَعُونَ لَيْلَةً بَعَثَ اللهُ إِلَيْهَا مَلَكا،**

---

١) الإعجاز العلمي في السنة النبوية زغلول النجار: ص (١٣٤-١٣٥).
٢) متفق عليه: رواه البخاري ، ح (٣٢٠٨)، ومسلم ، ح (٢٦٤٣).

فَصَوَّرَهَا، وَخَلَقَ سَمْعَهَا وَبَصَرَهَا وَجِلْدَهَا وَلَحْمَهَا وَعَظْمَهَا...}[١].

وَشَكْلُ الْمُضْغَةِ لَا صِلَةَ لَهُ بِشَكْلِ الْإِنْسَانِ مِنْ قَرِيبٍ أَوْ بَعِيدٍ، وَلَكِنْ تَبْدَأُ الْمُضْغَةُ فِي اكْتِسَابِ الشَّكْلِ الْإِنْسَانِيِّ بِالتَّدْرِيجِ فِي الْأَيَّامِ الْخَمْسَةِ التَّالِيَةِ لِتَخَلُّقِ الْمُضْغَةِ؛ أَيْ: فِي الْفَتْرَةِ مِنَ الْيَوْمِ الْأَرْبَعِينَ إِلَى الْخَامِسِ وَالْأَرْبَعِينَ مِنْ بَعْدِ عَمَلِيَّةِ الْإِخْصَابِ، وَفِي الْيَوْمِ الْخَامِسِ وَالْأَرْبَعِينَ يَتِمُّ تَكَوُّنُ الْأَعْضَاءِ، وَالْهَيْكَلِ الْعَظْمِيِّ بِصُورَةٍ ظَاهِرَةٍ، وَتَسْتَمِرُّ عَمَلِيَّةُ الِانْقِسَامِ الْخَلَوِيِّ وَالتَّمَايُزِ الدَّقِيقِ فِي الْخَلْقِ بَعْدَ ذَلِكَ.

وَقَدْ ثَبَتَ بِالدِّرَاسَاتِ الْمُسْتَفِيضَةِ فِي مَجَالِ عِلْمِ الْأَجِنَّةِ الْبَشَرِيَّةِ أَنَّ هَذِهِ الْمَرَاحِلَ لَا تَبْدَأُ إِلَّا مَعَ نِهَايَةِ مَرْحَلَةِ الْمُضْغَةِ، أَيْ مَعَ نِهَايَةِ الْأُسْبُوعِ السَّادِسِ مِنْ بَدْءِ الْحَمْلِ (بَعْدَ اثْنَتَيْنِ وَأَرْبَعِينَ لَيْلَةً) وَبِذَلِكَ يَثْبُتُ صِدْقُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحَدِيثَيْنِ الْمَذْكُورَيْنِ، وَفِي كُلِّ حَدِيثٍ قَالَهُ.

***

١) رواه مسلم، ح (٢٦٤٥). وقد علق الدكتور محمد فياض على فهم بعض علماء المسلمين الخاطئ للحديث في كتابه "إعجاز آيات القرآن في بيان خلق الإنسان" ص (١٣٤).

الْمَبْحَثُ الرَّابِعُ

الإِعْـجَـــازُ التَّارِيخِـيُّ.

الْإِعْجَازُ التَّارِيخِيُّ: هُوَ مَا انْطَوَى عَلَيْهِ مِنْ أَخْبَارِ الْقُرُونِ السَّالِفَةِ وَالْأُمَمِ الْبَائِدَةِ، وَالشَّرَائِعِ الدَّائِرَةِ مِمَّا كَانَ لَا يَعْلَمُ مِنْهُ الْقِصَّةَ الْوَاحِدَةَ إِلَّا الْفَذُّ مِنْ أَحْبَارِ أَهْلِ الْكِتَابِ، الَّذِي قَطَعَ عُمْرَهُ فِي تَعَلُّمِ ذَلِكَ، فَيُورِدُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى وَجْهِهِ، وَيَأْتِي بِهِ عَلَى نَصِّهِ، وَهُوَ أُمِّيٌّ لَا يَقْرَأُ وَلَا يَكْتُبُ(١).

فَالْإِنْسَانُ هُوَ الْإِنْسَانُ- مِنْ مِائَةِ قَرْنٍ خَلَتْ إِلَى مِائَةِ قَرْنٍ يَلِدُهَا الْمُسْتَقْبَلُ الْمَنْظُورُ أَوْ أَكْثَرَ- لَنْ تَتَغَيَّرَ طَبِيعَتُهُ، وَلَنْ يَتَبَدَّلَ جَوْهَرُهُ؛ لِذَلِكَ فَقَدْ حَفِظَ الْقُرْآنُ قَصَصَ الْأَوَّلِينَ مَعَ أَنْبِيَائِهِمْ، وَجَدَّدَ عَلَى النَّاسِ ذِكْرَهَا بَعْدَمَا طَوَتِ اللَّيَالِي أَصْحَابَهَا؛ لِيُدَاوِيَ بِهَا عِلَلا مُتَشَابِهَةً، وَقَدْ كَثُرَتِ الْقِصَصُ لِتُحْصِيَ جُمْلَةً كَبِيرَةً مِنَ الْأَمْرَاضِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ، وَتَسْتَأْصِلَ جُرْثُومَتَهَا بِصُنُوفِ الْعِبَرِ وَشَتَّى النُّذُرِ(٢).

• فَلْنَتَأَمَّلْ قِصَّةَ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ؛ وَقَدْ جَاءَتْ مُفَصَّلَةً- بِدَايَةً مِنْ دَعْوَتِهِ لِقَوْمِهِ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا، وَمُرُورًا بِرِحْلَةِ التَّكْذِيبِ الْكَبِيرَةِ الَّتِي قَادَهَا كُبَرَاءُ قَوْمِهِ، وَصِنَاعَةِ السَّفِينَةِ وَرُكُوبِ الْمُؤْمِنِينَ، وقِصَّةِ الطُّوفَانِ الْعَظِيمِ، وَغَرَقِ ابْنِهِ وَزَوْجَتِهِ، وَاسْتِقْرَارِ الْأَمْرِ بَعْدَ ذَلِكَ لِنُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ- كَيْفَ

---

١) الإتقان في علوم القرآن - جلال الدين السيوطي:(٢/ ٣٢٣).
٢) نظرات في القرآن - محمد الغزالي:ص (٩٥-٩٨).

عَلِمَ رَسُولُ الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كُلَّ هَذِهِ التَّفَاصِيلِ الَّتِي جَاءَتْ أَطْرَافٌ مِنْهَا فِي كُتُبِ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَلَمْ تَأْتِ أَطْرَافٌ أُخْرَى مِنْهَا، وَلَكِنَّ رَسُولَ الله مُحَمَّدًا صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أُخْبِرَ بِهَا عَلَى وَجْهِ الْيَقِينِ؛ لِذَلِكَ يَخْتِمُ رَبُّنَا قِصَّةَ نُوحٍ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ بِقَوْلِه: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۛ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ (هود).

• وَمِنَ الْأَمْثِلَةِ الْوَاضِحَةِ عَلَى الْإِعْجَازِ التَّارِيخِيِّ فِي الْقُرْآنِ: ذِكْرُ اسْمِ هَامَانَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مُتَّصِلًا بِاسْمِ فِرْعَوْنِ مُوسَى، وَكَشَخْصٍ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ إِلَيْهِ، قَالَ تَعَالَى عَلَى لِسَانِ فِرْعَوْنَ: ﴿ فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ (القصص)، وَتُخَالِفُ صُورَةُ هَامَانَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ الصُّورَةَ الَّتِي ظَهَرَ بِهَا فِي أَحَدِ كُتُبِ الْعَهْدِ الْقَدِيمِ؛ حَيْثُ ظَهَرَ كَمُسَاعِدٍ لِمَلِكِ بَابِلَ (فِي الْعِرَاقِ)، وَأَوْقَعَ الضَّرَرَ الْكَبِيرَ بِالْإِسْرَائِيلِيِّينَ، وَقَدْ حَدَثَ هَذَا بَعْدَ سَيِّدِنَا مُوسَى بِحَوَالَيْ أَلْفٍ وَمَائَةِ سَنَةٍ، وَقَدْ أَثْبَتَتْ الِاكْتِشَافَاتُ الْفِرْعَوْنِيَّةُ صِحَّةَ مَا جَاءَ بِهِ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ؛ فَمِنْ خِلَالِ الْكِتَابَاتِ وَالنُّقُوشِ الْهِيرُوغْلِيفِيَّةِ تَمَّ التَّعَرُّفُ عَلَى مَعْلُومَةٍ مُهِمَّةٍ جِدًّا، وَهِيَ أَنَّ اسْمَ هَامَانَ وَرَدَ فِعْلا فِي الْكِتَابَاتِ الْمِصْرِيَّةِ الْقَدِيمَةِ؛ حَيْثُ يُوجَدُ اسْمُهُ عَلَى حَجَرٍ مَوْجُودٍ حَالِيا فِي مُتْحَفِ هُوف بِفِيينْا، كَمَا وَرَدَ اسْمُهُ كَذَلِكَ فِي (مُعْجَمِ أَسْمَاءِ الْأَشْخَاصِ فِي الْإِمْبِرَاطُورِيَّةِ الْجَدِيدَةِ الَّذِي تَمَّتْ كِتَابَتُهُ اعْتِمَادًا عَلَى الْمَعْلُومَاتِ الْوَارِدَةِ فِي جَمِيعِ الْأَلْوَاحِ وَالْأَحْجَارِ

الْمِصْرِيَّة، وَظَهَرَتْ وَظِيفَتُهُ وَأَنَّه كَانَ مَسْئُولًا عَنْ عُمَّالِ مَقَالِعِ الأَحْجَارِ)[١].

• وَمِنْ إِعْجَازِ الْقُرآنِ التَّارِيخِيِّ كَذَلِكَ: أَنَّهُ أَطْلَقَ لَقَبَ (مَلِكٍ) عَلَى حَاكِمِ مِصْرَ فِي عَهْدِ يُوسُفَ[٢]، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَٰيَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ (يوسف). بَيْنَمَا أَطْلَقَتِ التَّوْرَاةِ عَلَى الْحَاكِمِ نَفْسِهِ لَقَبَ فِرْعَوْنَ، وَالسَّبَبُ فِي عَدَمِ إِطْلَاقِ الْقُرْآنِ لَقَبَ (فِرْعَوْنَ) عَلَى حَاكِمِ مِصْرَ فِي عَهْدِ يُوسُفَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أَنَّ لَقَبَ برعوا- وهو أصل لقب فرعون- لم يكن يطلق على حاكم مصر نفسه في ذلك العصر، بل كان يعني (القصر الملكي)، ولَمْ يَبْدَأْ إِطْلَاقُ هَذَا اللَّقَبِ عَلَى حَاكِمِ مِصْرَ إِلَّا بَعْدَ عَصْرِ يُوسُفَ بِمَا لَا يَقِلُّ عَنْ مِائَتَيْ سَنةٍ[٣]، وَهَكَذَا فَفِي الْعَصْرِ الَّذِي عَاشَ فِيهِ مُوسَى كَانَ لَقَبُ (فِرْعَوْنَ) يُطْلَقُ عَلَى حَاكِمِ مِصْرَ، وَبِذَلِكَ يَتَجَلَّى الْإِعْجَازُ التَّارِيخِيُّ لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، الَّذِي كَانَ دَقِيقا حِينَ لَمْ يَسْتَخْدِمْ لَقَبَ (فِرْعَوْنَ) إِلَّا مَعَ حَاكِمِ مِصْرَ فِي عَهْدِ سَيِّدِنَا مُوسَى، فِي حِينِ عَمَّمَتِ التَّوْرَاةُ اسْتِخْدَامَ لَقَبِ فِرْعَوْنَ عَلَى حَاكِمِ مِصْرَ فِي عَصْرِ كُلٍّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى، رَغْمَ أَنَّ الْمِصْرِيِّينَ لَمْ يَسْتَخْدِموهُ لِلدَّلَالَةِ عَلَى حَاكِمِ مِصْرَ فِي

---

١) المعجزات القرآنية – هارون يحيى: ص (٧١، ٧٢).

٢) في سورة يوسف الآيات: (٤٣، ٥٠، ٥٤، ٧٢).

٣) بينما قالت الموسوعة البريطانية: إن لفظ ملك كان يطلق على الهكسوس الذين احتلوا مصر ما بين (١٦٤٨ إلى ١٥٤٠ ق. م) أي في زمن قدوم يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لمصر. انظر موقع موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة .

الزَّمَنِ الَّذِي عَاشَ فِيهِ كُلٌّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ وَيُوسُفَ(١).

وَنَخْتِمُ بِقَوْلَةِ فَخْرِ الدِّينِ الرَّازِي: « إِنَّ هَذِهِ الْقِصَصَ دَالَّةٌ عَلَى نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لِأَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ أُمِّيًّا، وَمَا طَالَعَ كِتَابا وَلَا تَتَلْمَذَ عَلَى يَدِ أُسْتَاذٍ، فَإِذَا ذَكَرَ هَذِهِ الْقِصَصَ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا خَطَأ؛ دَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ إِنَّمَا عَرَفَهَا بِالْوَحْيِ مِنَ اللهِ، وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ نُبُوَّتِهِ »(٢).

***

١) المعجزات القرآنية - هارون يحيى: ص (٧٤، ٧٥).
٢) مفاتيح الغيب الرازي (١٤/ ١١٩).

المُبْحَثُ الْخَامِسُ

الإِعْجَازُ الْغَيْبِيّ

لَقَدْ أَخْبَرَ الْقُرْآنُ بِأُمُورٍ مُسْتَقْبَلِيَّةٍ وَحَدَثَتْ كَمَا أَخْبَرَ، وَهَذَا مَا لَا سَبِيلَ لِلْبَشَرِ إِلَيْهِ بِحَالٍ، وَذَلِكَ فِي الْقُرْآنِ كَثِير، وَمِنْ ذَلِكَ:

• قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ ﴾ (الروم).

وَأَصْلُ الْحَادِثَةِ أَنَّ فَارِسَ- وَهُمْ أَهْلُ أَوْثَانٍ- غَلَبَتِ الرُّومَ- وَهُمْ أَهْلُ كِتَابٍ- فَشَمَتَ كُفَّارُ مَكَّةَ فِي النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصَحْبِهِ، فَأَنْزَلَ اللهُ الآيَاتِ السَّابِقَةَ تَحَدِّيًا لِلْعَرَبِ وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ؛ لِأَنَّ طَائِفَةَ الْإِيمَانِ سَتَنْتَصِرُ؛ لَكِنَّ الَّذِي يَعْنِينَا أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ أَخْبَرَ عَنْ حَدَثٍ غَيْبِيٍّ مُهِمٍّ، لَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ- فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ- أَنْ يُغَيِّرَ مِنْهُ فِي شَيْءٍ، أَوْ يُكَذِّبَهُ، وَهُوَ لَوْنٌ مِنْ أَلْوَانِ الْإِعْجَازِ الْغَيْبِيِّ الَّذِي جَاءَ بِهِ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ مُتَحَدِّيًا بِهِ كُلَّ مُعَانِدٍ لَهُ، أَوْ جَاحِدٍ لِحَقِيقَتِهِ، وَقَدْ حَدَثَ مَا أَخْبَرَ بِهِ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنِ انْتِصَارِ الرُّومِ عَلَى الْفُرْسِ، وَكَانَ ذَلِكَ وَقْتَ غَزْوَةِ بَدْرٍ(١).

• وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝٤٥ ﴾ (القمر). فَقَدْ ذَكَرَ

---

١) أسباب النزول - الواحدي: ص (٢٣١، ٢٣٢).

الْإِمَامُ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي تَفْسِيرِهِ: « عَنْ عِكْرِمَةَ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ قَالَ عُمَرُ: أَيُّ جَمْعٍ يُهْزَمُ؟ أَيُّ جَمْعٍ يُغْلَبُ؟ قَالَ عُمَرُ: فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ رَأَيْتُ رَسُولَ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَثِبُ فِي الدِّرْعِ وَهُوَ يَقُولُ: ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾. فَعَرَفْتُ تَأْوِيلَهَا يَوْمَئِذٍ »(١).

• وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ ﴾ (الفتح).

فَقَدْ نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ عِنْدَ انْصِرَافِ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمسلمينَ مِنَ الْحُدَيْبِيَةِ.

وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: « وَكَانَ رَسُولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ أُرِيَ فِي الْمَنَامِ أَنَّهُ دَخَلَ مَكَّةَ، وَطَافَ بِالْبَيْتِ، فَأَخْبَرَ أَصْحَابَهُ بِذَلِكَ وَهُوَ بِالْمَدِينَةِ، فَلَمَّا سَارُوا عَامَ الْحُدَيْبِيَةِ لَمْ يَشُكَّ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ أَنَّ هَذِهِ الرُّؤْيَا تَتَفَسَّرُ (تَحْدُثُ) هَذَا الْعَامَ، فَلَمَّا وَقَعَ مَا وَقَعَ مِنْ قَضِيَّةِ الصُّلْحِ وَرَجَعُوا عَامَهُمْ ذَلِكَ عَلَى أَنْ يَعُودُوا مِنْ قَابِلٍ؛ وَقَعَ فِي نُفُوسِ بَعْضِ الصَّحَابَةِ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ، حَتَّى سَأَلَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ لَهُ فِيمَا قَالَ: أَفَلَمْ تَكُنْ تُخْبِرُنَا أَنَّا سَنَأْتِي الْبَيْتَ وَنَطُوفُ بِهِ؟ قَالَ: { بَلَى أَخْبَرْتُكَ أَنَّا نَأْتِيهِ الْعَامَ؟ } قَالَ: لَا. قَالَ: { إِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَوِّفٌ بِهِ } »(٢).

---

١) تفسير القرآن العظيم – ابن كثير: (٧/ ٤٤٦).

٢) رواه البخاري، ح (٢٧٣١)، (٢٧٣٢). وانظر: تفسير ابن كثير (٧/ ٣٥٦).

وَقَدْ تَحَقَّقَ هَذَا الْوَعْدُ بِتَمَامِهِ مِنَ الْعَامِ التَّالِي؛ فَقَدِ اعْتَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابُه، عَلَى الْهَيْئَةِ الَّتِي ذَكَرَهُمُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ بِهَا؛ مِنْ تَحْلِيقِ الرُّءُوسِ وَالْأَمْنِ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَكَانَ هَذَا فِي ذِي الْقَعْدَةِ مِنَ السَّنَةِ السَّابِعَةِ لِلْهِجْرَةِ(١).

وَلَا رَيْبَ أَنَّ تَحَقُّقَ مَا بَشَّرَ بِهِ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ دُونَ خَلَلٍ فِي شَرْحِ تَفَاصِيلِ هَيْئَةِ الْمُسْلِمِينَ، أَوْ تَغَيُّرٍ فِي مِيعَادِ الْعُمْرَةِ، لِيُدَلِّلَ بِوُضُوحٍ تَامٍّ عَلَى صِدْقِ وعْدِ اللهِ سُبحَانَهُ وتَعَالَى وَصِدْقِ إِخْبَارِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

كَمَا أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ قَدْ بَشَّرَ الْمُسْلِمِينَ بِالتَّمْكِينِ وَالِاسْتِخْلَافِ فِي الْأَرْضِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ (النور).

وَقَدْ تَحَقَّقَ لِلْمُسْلِمِينَ ذَلِكَ فِي أَقَلَّ مِنْ خَمْسَةٍ وَعِشْرِينَ عَامًا، فَامْتَدَّتْ خِلَافَتُهُمْ مِنَ الصِّينِ شَرْقًا إِلَى الْمُحِيطِ الْأَطْلَسِيِّ غَرْبًا، بَلْ وَصَلَتْ إِلَى أُورُبَّا شَمَالًا.

وَغَيْرُ ذَلِكَ كَثِيرٌ، فَالْإِعْجَازُ الْغَيْبِيُّ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَكْثَرِ الْأَدِلَّةِ عَلَى صِدْقِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لِأَنَّ إِخْبَارَهُ بِالْأَحْدَاثِ الَّتِي سَتَقَعُ أَوْ وَقَعَتْ بِالْفِعْلِ وَلَمْ يُشَاهِدْهَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهِ دِلَالَةٌ عَلَى أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هُوَ الَّذِي أَوْحَى بِهَا إِلَيْهِ

---

١) انظر: ابن هشام: السيرة النبوية (٢/ ٢٧٠).

مِصْدَاقًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ (آل عمران:٤٤).

* * *

فصل : في الإعْجَازُ الغيْبِيُّ فِي سُنَّتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

• مِنْ ذَلِكَ مَا جَاءَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « **نَعَى النَّجَاشِيَّ فِي الْيَوْمِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ، خَرَجَ إِلَى الْمُصَلَّى، فَصَفَّ بِهِمْ وَكَبَّرَ أَرْبَعا** »(١). وَهَذَا الْحَدِيثُ دَلِيلٌ مِنْ دَلَائِلِ نُبُوَّتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لِأَنَّ نَعْيَ النَّجَاشِيَّ فِي الْيَوْمِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ، عَلَى الرَّغْمِ أَنَّ الْمَسَافَةَ بَيْنَ الْحَبَشَةِ وَالْمَدِينَةِ مَسِيرَةَ أَيَّامٍ وَلَيَالٍ، تُؤَكِّدُ بِمَا لَا يَدَعُ مَجَالا لِلشَّكِّ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ هُوَ الَّذِي أَخْبَرَهُ بِوَفَاةِ النَّجَاشِيِّ(٢).

• وَمِنْ ذَلِكَ : تَنَبُّؤُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِفَتْحِ بِلَادِ فَارِسٍ، وَانْتِشَارِ الْأَمْنِ وَالْأَمَانِ فِي رُبُوعِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ، فَعَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: « بَيْنَمَا أَنَا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ أَتَاهُ رَجُلٌ، فَشَكَا إِلَيْهِ الْفَاقَةَ، ثُمَّ أَتَاهُ آخَرُ، فَشَكَا قَطْعَ السَّبِيلِ، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: { **يَا عَدِيُّ، هَلْ رَأَيْتَ الْحِيرَةَ؟** }. قُلْتُ: لَمْ أَرَهَا، وَقَدْ أُنْبِئْتُ عَنْهَا. قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: { **فَإِنَّ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتَرَيَنَّ الظَّعِينَةَ**(٣) **تَرْتَحِلُ مِنَ الْحِيرَةِ، حَتَّى تَطُوفَ بِالْكَعْبَةِ، لَا تَخَافُ أَحَدا إِلَّا اللهَ** }. قُلْتُ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِي: فَأَيْنَ دُعَّارُ طَيِّءٍ(١) الَّذِينَ قَدْ سَعَّرُوا البِلَادَ(٢) ، { **وَلَئِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتُفْتَحَنَّ**

---

١) رواه البخاري، ح (١٢٤٥)، ومسلم ، ح (٩٥١).

٢) نبوَّة محمد من الشكِّ إلى اليقين - فاضل صالح السامرائي: ص (١٦٢).

٣) الظعينة: المرأة في الهودج، وهو في الأصل اسم للهودج. انظر: فتح الباري (٦/ ٦١٣).

دُعَّارُ طَيِّءٍ(١) الَّذِينَ قَدْ سَعَّرُوا البِلاَدَ(٢) ، { وَلَئِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتُفْتَحَنَّ كُنُوزُ كِسْرَى} ، قُلْتُ: كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ؟ قَالَ: { كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ، وَلَئِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ، لَتَرَيَنَّ الرَّجُلَ يُخْرِجُ مِلْءَ كَفِّهِ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ، يَطْلُبُ مَنْ يَقْبَلُهُ مِنْهُ فَلاَ يَجِدُ أَحَدًا يَقْبَلُهُ مِنْهُ، وَلَيَلْقَيَنَّ اللهَ أَحَدُكُمْ يَوْمَ يَلْقَاهُ، وَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ يُتَرْجِمُ لَهُ، فَلَيَقُولَنَّ لَهُ: أَلَمْ أَبْعَثْ إِلَيْكَ رَسُولًا فَيُبَلِّغَكَ؟ فَيَقُولُ: بَلَى، فَيَقُولُ: أَلَمْ أُعْطِكَ مَالًا وَأُفْضِلْ عَلَيْكَ؟ فَيَقُولُ: بَلَى، فَيَنْظُرُ عَنْ يَمِينِهِ فَلاَ يَرَى إِلَّا جَهَنَّمَ، وَيَنْظُرُ عَنْ يَسَارِهِ فَلاَ يَرَى إِلَّا جَهَنَّمَ } قَالَ عَدِيٌّ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، يَقُولُ: { اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقَّةِ تَمْرَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ شِقَّةَ تَمْرَةٍ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ } قَالَ عَدِيٌّ: فَرَأَيْتُ الظَّعِينَةَ تَرْتَحِلُ مِنَ الحِيرَةِ حَتَّى تَطُوفَ بِالكَعْبَةِ لاَ تَخَافُ إِلَّا اللهَ، وَكُنْتُ فِيمَنِ افْتَتَحَ كُنُوزَ كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ، وَلَئِنْ طَالَتْ بِكُمْ حَيَاةٌ، لَتَرَوُنَّ مَا قَالَ النَّبِيُّ أَبُو القَاسِمِ: صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يُخْرِجُ مِلْءَ كَفِّهِ »(٣).

وقد حدث مثل هذا في زمن الخليفة عمر بن عبد العزيز رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، فقد كان عماله يطوفون على من يقبل الصدقة فلا يقبلها أحد؛ فقد أغنى عمر بن عبد العزيز رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ الناس، وعن ذلك يقول مهاجر بن يزيد: « بعثنا عمر بن عبد العزيز

---

١) دعَّار: جمع داعر وهو الشرير، ويطلق على المفسد والسارق، والمراد قطاع الطريق، وطيئ قبيلة مشهورة، منها عدي بن حاتم المذكور، وبلادهم ما بين العراق والحجاز، وكانوا يقطعون الطريق على من مر عليهم بغير جواز، ولذلك تعجب عدي كيف تمر المرأة عليهم وهي غير خائفة. انظر: المرجع السابق نفس الصفحة.

٢) سعَّروا البلاد: أي أوقدوا نار الفتنة، وملأوا الأرض شرًا وفسادًا. انظر: المرجع السابق نفس الصفحة.

٣) رواه البخاري ، ح (٣٥٩٥).

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقسمنا الصدقة، فلقد رأيتنا وإنا لنأخذ الزكاة في العام القابل ممن يتصدق عليه في العام الماضي »[١].

• ومن ذلك ما بشَّر به من فتح القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية [٢].

فَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ بِشْرٍ الْخَثْعَمِيِّ عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: **{ لَتُفْتَحَنَّ الْقُسْطَنْطِينِيَّةُ، فَلَنِعْمَ الْأَمِيرُ أَمِيرُهَا، وَلَنِعْمَ الْجَيْشُ ذَلِكَ الْجَيْشُ }**[٣].

وهذا الحديث الشريف إعجاز غيبي قلَّما يتوقعه أي متأمِّل لواقع المسلمين؛ سواء وهم في مكة حال الاستضعاف، أم في المدينة حال الاستقرار المشوب بالحذر، فكيف سيفتح المسلمون القسطنطينية الحصينة؟! وهي عاصمة الإمبراطورية البيزنطية، التي ما انفكت تصارع أمة الفرس، فكانت الحرب سجالًا بين الإمبراطوريتين العظميين، وكانت معظم الأرض مقسمة بينهما، فكيف سينتصر المسلمون على هذه الإمبراطورية التليدة؟!

لكن إيمان المسلمين بصدق رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دفعهم إلى محاولات عديدة لنيل هذا الشرف؛ بداية من عهد معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي أرسل ابنه

---

١) تهذيب الأسماء واللغات - محيي الدين النووي (٢/ ٢١).

٢) وكذلك بشر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بفتح اليمن، والعراق، والشام، وبيت المقدس، ومصر، والروم، وفارس، فيما رواه البخاري: أبواب فضائل المدينة، باب من رغب عن المدينة، ح (١٨٧٥)، ومسلم: كتاب الحج، باب الترغيب في المدينة عند فتح الأمصار، ح (١٣٨٨).

٣) رواه أحمد (١٨٩٥٧)، والحاكم (٨٣٠٠)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، والهيثمي: مجمع الزوائد (٦/ ٢٢٩).

يزيد على رأس جيش مكون من كثير من الصحابة وأبناء الصحابة، الذين أرادوا نيل شرف مدح رسول الله للجيش الفاتح للقسطنطينية، ثم تعدَّدت المحاولات في القرون اللاحقة حتى فتحها محمد الفاتح الخليفة العثماني العظيم في عام (٨٥٧ هـ/ ١٤٥٣م)، فكانت فتحًا عظيمًا، ونبلًا كبيرًا مُنِح لمحمد الفاتح من قبل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وترتَّب على هذا الفتح المجيد سقوط الإمبراطورية البيزنطية، ولم تقم لها من يومها قائمة.

• ومن ذلك قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **{ لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَخْرُجَ نَارٌ مِنْ أَرْضِ الحِجَازِ تُضِيءُ أَعْنَاقَ الإِبِلِ بِبُصْرَى }**[1]. وقد ظهرت هذه النار في أرض الحجاز سنة (٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م) بالحَرَّةِ قُرْبَ المدينةِ المنوَّرَةِ، وذكرها المؤرِّخون المعاصرون لها في كتبهم[2].

***

١) متفق عليه: رواه البخاري، ح (٧١١٨)، ومسلم، ح (٢٩٠٢).

٢) الجواب الصحيح لمن بدل المسيح - ابن تيمية (٣/ ١٦٢، ١٦٣)، (٥/ ٤٢٠، ٦/ ٨٩)، البداية والنهاية - ابن كثير (٢/ ٣٩٥).

الْمَبْحَثُ السَّادِسُ

الإِعْجَـازُ النَّفْسِيُّ.

إِنَّ لِكِتَابِ اللهِ مَعْرِفَةً بِأَدَقِّ التَّفَاصِيلِ عَنِ النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ، الَّتِي لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا خالقها؛ لذلك كان التأثير النفسي للقرآن عميقًا، والإعجاز النفسي في آي القرآن نلمحه في حديث القرآن عن أصناف الناس ومواقفهم، وخفايا نفوسهم ودوافعها.

ولقد أسماه الإمام الخطابي (ت ٣٨٨هـ)، بتأثير القرآن في القلوب حيث يقول: « وَقُلْتُ فِي إِعْجَازِ الْقُرْآنِ وَجْهًا آخر ذهب عنه الناس فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ في آحادهم، وَهُوَ صَنِيعُهُ بِالْقُلُوبِ وَتَأْثِيرُهُ فِي النُّفُوسِ فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ كَلَامًا غَيْرَ الْقُرْآنِ مَنْظُومًا وَلَا مَنْثُورًا إِذَا قَرَعَ السَّمْعَ خَلَصَ لَهُ إِلَى الْقَلْبِ مِنَ اللَّذَّةِ وَالْحَلَاوَةِ فِي حَالٍ وَمِنَ الرَّوْعَةِ وَالْمَهَابَةِ فِي حَالٍ أُخْرَى مَا يَخْلُصُ مِنْهُ إِلَيْهِ ، تستبشر به النفوس، وتنشرح له الصدور، حتى إذا أخذت حظها منه عادت مرتاعة، وتغشاها من الخوف ما تقشعر منه الجلود، وتنزعج له القلوب، يحول بين النفس وبين مضمراتها وعقائدها الراسخة فيها، فكم من عدو للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من رجال العرب وفتاكها أقبلوا يريدون اغتياله وقتله، فسمعوا آيات من القرآن فلم يلبثوا حين وقعت في مسامعهم أن يتحولوا عن رأيهم الأول، وأن يركنوا إلى

مسالمته، ويدخلوا في دينه، وصارت عداوتهم موالاة، وكفرهم إيمانًا »(١).

وَيَقُولُ الزَّرْكَشِيُّ: « فَمِنْهَا الرَّوْعَةُ الَّتِي لَهُ فِي قُلُوبِ السَّامِعِينَ وَأَسْمَاعِهِمْ سَوَاءٌ الْمُقِرِّينَ وَالْجَاحِدِينَ،... وَمِنْهَا: أَنَّهُ لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالُ غَضًّا طَرِيًّا فِي أَسْمَاعِ السَّامِعِينَ وَعَلَى أَلْسِنَةِ الْقَارِئِينَ »(٢).

ويكشف القاضي عياض أن هذه الروعة، وتلك الهيبة كانت سببًا في إسلام بعض الكفار من العرب؛ فيقول: « وَمِنْهَا الرَّوْعَةُ الَّتِي تَلْحَقُ قُلُوبَ سَامِعِيهِ وَأَسْمَاعَهُمْ عِنْدَ سَمَاعِهِ، وَالْهَيْبَةُ الَّتِي تَعْتَرِيهِمْ عِنْدَ تِلَاوَتِهِ... فَمِنْهُمْ مَنْ أَسْلَمَ لَهَا لِأَوَّلِ وَهْلَةٍ.. وَآمَنَ بِهِ. وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ .. عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْرَأُ فِي الْمَغْرِبِ بِالطُّورِ فَلَمَّا بَلَغَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ (الطور). كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ لِلْإِسْلَامِ.. وَفِي رِوَايَةٍ: وذلكَ أولَّ مَا وقَرَ الإسْلامُ فِي قَلْبِي »(٣).

• ونجد هذا الإعجاز النفسي في القرآن من خلال معالجته للعوارض النفسية للإنسان؛ قال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ

---

١) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن - الخطابي ص (٦٤).
٢) البرهان في علوم القرآن - الزركشي (٢/ ١٠٦- ١٠٧).
٣) الشفا بتعريف حقوق المصطفى - القاضي عياض (١/ ٥٣٠- ٥٣١)، وانظر الحديث في صحيح البخاري برقم (٤٨٥٤).

﴿ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ (الإسراء)، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ (يونس)، فَإِذَا كانت معالجة الأبدان إنما تكون بالأغذية والأدوية؛ فإن معالجة النفوس إنما تكون بشيء روحاني يجانسها، فيقمع ما يثور فيها من عوارض؛ ففي القرآن شفاء، وفي القرآن رحمة لمن خالطت قلوبهم بشاشة الإيمان فأشرقت وتفتحت؛ لتلقى ما في القرآن من روح وطمأنينة، وأمن وسلام، وموعظة وعبرة.

• وفي القرآن شفاء من الوسوسة والقلق والحيرة، وفَرْطِ الحزن وشدَّته، فهو يصل القلب بالله، فيسكن ويهدأ ويطمئن، ويستشعر الحماية والأمن.

• وفي القرآن شفاء من الاتجاهات المختلفة في الشعور والتفكير؛ فهو يعصِم العقل من الشَّطَطِ، ويطلق له الحرية في مجالاته المثمرة، ويكفه عن إنفاق طاقته فيما لا يجدي ولا ينفع، ويأخذه بمنهج سليم مضبوط يجعل نشاطه منتجًا ومأمونًا، وفي القرآن شفاء من العلل والأمراض الاجتماعية التي تقوض بناء المجتمعات، وتذهب بسلامتها وأمنها وطمأنينتها سدى.

• ويحلل القرآن في إشارات إلهية معجزةٍ نفسياتِ بعض الناس؛ فهو مثلًا يصوِّر لنا نفسية الملوك، وأنهم أفقر الناس لكثرة احتياجهم، وأكثرهم قلقًا وحبًّا لسفك الدماء؛ بسبب كثرة ما يملكونه أو يطمحون إليه، قال تعالى على لسان ملكة اليمن: ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾﴾ (النمل).

• ويصوِّر القرآن مشهدًا قويًّا؛ يبيِّن حقيقة الملوك وطبيعتهم من خلال محاجَّة

موسى لفرعون وقومه، قال تعالى: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ (الشعراء).

• ويصوِّر نفسية الشِّرِّير وما يعانيه من القلق والحيرة، وقلة الاستقرار وخوفه من نفسه بحيث يهرع إلى أمثاله. قال تعالى: ﴿ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾ (الأنعام).

• ويصوِّر- أيضًا - نفسية الإنسان الخيِّر في سعادته بذاته وبما يفعل، وفي إيمانه بقيمة الخير، وانسجامه مع نفسه ومع غيره قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ (يونس).

• وإن روعة القرآن الكريم وعظمته تتجلَّى من خلال تبديله لسلوكيات البشر من النقيض إلى النقيض؛ فالقرآن قادر على تحويل غلاظ القلوب إلى رحماء؛ ولنا في عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ القدوة والمثل في ذلك، كما أنه قادر على تبديل الأثرة إلى إيثار؛ وهذا ما يتضح من خلال وصفه للأنصار- الذي كانوا يتحاربون من أجل الغنائم وحظوظ النفس في الجاهلية- حيث قال فيهم رب العِزَّة عزَّ وجلَّ: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ

حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (الحشر).

• وَمِنَ الْعَوَارِضِ النَّفْسِيَّةِ الَّتِي يُدَاوِيهَا الْقُرْآنُ: وَسَاوِسُ الصُّدُورِ، وَأَحَادِيثُ النُّفُوسِ، وَهِيَ مِنْ أَقْوَى أَمْرَاضِ النَّفْسِ وَأَشدِّهَا تَأْثِيرا فِي الْإِنْسَانِ وَإِيذَاءً لَهُ.

* **شَرْطٌ لازمٌ**:

وَهَذَا الْعِلَاجُ النَّفْسِيُّ ذُو التَّأْثِيرِ الْعَجِيبِ يَتِمُّ الْعِلَاجُ بِهِ بِشَرْطِ الِاسْتِجَابَةِ؛ بَلْ إِنَّ صَلَاحَ الْقَلْبِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالَاتِ النَّفْسِيَّةِ وَسَعَادَتَهُ مَوْقُوفٌ عَلَى الذِّكْرِ وَتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ (يس).

فَأَخْبَرَ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ الِانْتِفَاعَ بِالْقُرْآنِ وَالْإِنْذَارَ بِهِ إِنَّمَا يَحْصُلُ لِمَنْ هُوَ حَيُّ الْقَلْبِ، كَمَا قَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾ (ق).

وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ (الأنفال:٢٤)،

فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنَّ حَيَاتَنَا إِنَّمَا هِيَ بِاسْتِجَابَتِنَا لِمَا يَدْعُونَا الْقُرْآنُ إِلَيْهِ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْعِلْمِ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ مِنْ أَحْدَثِ طُرُقِ الْعِلَاجِ النَّفْسِيِّ لَدَى الْأَطِبَّاءِ السُّلُوكِيِّينَ هُوَ تَدْرِيبُ الْمَرِيضِ النَّفْسِيِّ عَلَى الاسْتِرْخَاءِ فِي أَيِّ مَوْقِفٍ يَكُونُ فِيهِ، وَذَلِكَ فِي جَلَسَاتٍ مُتَكَرِّرَةٍ؛ فَإِذَا غَضِبَ- مَثَلًا- وَهُوَ وَاقِفٌ طُلِبَ مِنْهُ أَنْ يَجْلِسَ

وَيَسْتَرْخِيَ؛ حَتَّى يَذْهَبَ عَنْهُ الْغَضَبُ، وَهَذَا مَا يُسَمَّى بِتَشْكِيلِ السُّلُوكِ، وَهُوَ مَا عَلَّمَنَا إِيَّاهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ قَالَ: { **إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ قَائِمٌ فَلْيَجْلِسْ، فَإِنْ ذَهَبَ عَنْهُ الْغَضَبُ وَإِلَّا فَلْيَضْطَجِعْ** }(١).

إِنَّ الْأَعْرَاضَ النَّفْسِيَّةَ مِثْلُ الْغَضَبِ وَالْغَمِّ وَالْخَوْفِ وَالْجَزَعِ كَثِيرا مَا يَتَعَرَّضُ الْإِنْسَانُ لَهَا، إِذْ لَيْسَ يَخْلُو فِي أَكْثَرِ أَحْوَالِهِ مِنِ اسْتِشْعَارِ غَمٍّ أَوْ غَضَبٍ أَوْ حُزْنٍ، قَلَّ ذَلِكَ أَوْ كَثُرَ، كُلٌّ بِحَسْبِ ظُرُوفِهِ وَمِزَاجِهِ وَحَسَاسِيَّتِهِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ** ﴾ (ق:١٦).

وَمِنَ اللَّافِتِ أَنَّ هُنَاكَ وَقَائِعَ أُخْرَى كَثِيرَةً تُثْبِتُ الْإِعْجَازَ النَّفْسِيَّ وَاضِحًا جَلِيًّا؛ مِنْهَا: تَأَثُّرُ النَّجَاشِيِّ وَقَسَاوِسَتِهِ لَمَّا قَرَأَ عَلَيْهِ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي الْهِجْرَةِ الْأُولَى إِلَى الْحَبَشَةِ صَدْرا مِنْ سورة مريم ﴿ **كٓهيعٓصٓ** ﴾، فَبَكَى النَّجَاشِيُّ حَتَّى اخْضَلَّتْ لِحْيَتُهُ، وَبَكَى أَسَاقِفَتُهُ حِينَ سَمِعُوا مَا تُلِيَ عَلَيْهِمْ، ثُمَّ أَرْسَلَ النَّجَاشِيُّ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَبْعِينَ عَالِمًا من عُلَمَاءِ النَّصَارَى، فَقَرَأَ عَلَيْهِمْ سُورَةَ (يس) فَبَكَوْا وَآمَنُوا، وَإِلَى هَذَا يُشِيرُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ **وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾** ﴾ (المائدة).

---

١) رواه أحمد ح (٢١٣٤٨)، وأبو داود، ح (٤٧٨٢)، وابن حبان في صحيحه ح (٥٦٨٨)، كلهم عن أبي ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع ح (٦٩٤).

• وَيَتَجَلَّى هَذَا الْإِعْجَازُ فِيمَا كَتَبَتْهُ الْبِرِيطَانِيَّةُ مَارِي وِيْلدِز فِي كِتَابٍ بِعُنْوَانِ: (رِحْلَتِي مِنَ الْكَنِيسَةِ إِلَى الْمَسْجِدِ، لِمَاذَا ؟).

تَقُولُ الْكَاتِبَةُ: « لَقَدْ نَجَوْتُ مِنْ تِلْكَ الْحُفْرَةِ الْمُظْلِمَةِ الَّتِي كُنْتُ أَشْعُرُ بِهَا، وَانْزَاحَتْ عَنِّي غَشَاوَتُهَا وَاحِدَةً بَعْدَ الْأُخْرَى، بِمُعَاوَنَةِ أَصْدِقَاءٍ مُسْلِمِينَ فِي الْجَامِعَةِ وَصَبْرِهِمْ عَلَيَّ وَمُؤَازَرَتِهِمْ إِيَّايَ.. لَقَدْ تَعَلَّمْنَا لُغَةً جَدِيدَةً لِلتَّفَاهُمِ مَعَ الدُّنْيَا وَالْكَوْنِ هِيَ لُغَةُ الْقُرْآنِ » (١).

• وَمِنْ صَنِيعِ الْقُرْآنِ فِي نُفُوسِ غَيْرِ الْعَرَبِ: حَادِثَةُ الْمَرْأَةِ الْيُوغُسْلَافِيَّةِ النَّصْرَانِيَّةِ الَّتِي أَوْرَدَ سَيِّدُ قُطْب قِصَّةَ تَأَثُّرِهَا بِآيَاتِ الْقُرْآنِ؛ ذَلِكَ لِأَنَّ الْأَدَاءَ الْقُرْآنِيَّ يَمْتَازُ وَيَتَمَيَّزُ عَنِ الْأَدَاءِ الْبَشَرِيِّ بِأَنَّ لَهُ سُلْطَانًا عَجِيبًا عَلَى الْقُلُوبِ، حَتَّى لَيَبْلُغَ أَحْيَانًا أَنْ يُؤَثِّرَ بِتِلَاوَتِهِ الْمُجَرَّدَةِ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْرِفُونَ مِنَ الْعَرَبِيَّةِ حَرْفًا »، وَلَقَدِ اسْتَمَعَتْ هَذِهِ الْمَرْأَةُ إِلَى خُطْبَةٍ فِيهَا نُصُوصٌ قُرْآنِيَّةٍ، وَقَدْ تَبَيَّنَ لَهَا مِنْ خِلَالِ إِحْسَاسِهَا النَّفْسِيِّ رَوْعَةُ مَعَانِي بَعْضِ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ، وَاخْتلافُها في السِّياقِ عَنْ غيرِها منَ الكلامِ، وهذهِ الفَقَراتُ كانتْ تُحدِثُ رَعْشةً وقَشْعَرِيرَةً في نفسِها عندَما تَسْمَعُها. أليسَ هذا إعجازًا نفسيًّا لهذهِ المرأةِ التي لا تَعرِفُ العربيَّةَ؟!

والقصص في هذا المجال كثيرة(٢). ولعل فيما سبق كفاية ودلالة على المراد.

---

١) "رحلتي من الكنيسة إلى المسجد لماذا؟" ماري ويلدز: تقديم: المستشار محمد عزت الطهطاوي، ص (١٥).

٢) مجلة الفرقان- العدد السادس- يوليو ٢٠٠٠ م، ص (٥٩ - ٦٠).

الدَّلِيلُ الثَّانِي :

تَكَامُلُ شَخْصِيَّتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

لَا مَنْزِلَةَ فِي الْعَالَمِ أَعْلَى مِنْ مَنْزِلَةِ النُّبُوَّةِ، الَّتِي هِيَ سِفَارَةٌ بَيْنَ الله تَعَالَى وَعِبَادِهِ، تَبْعَثُ عَلَى مَصَالِحِ الْخَلْقِ وَطَاعَةِ الْخَالِقِ، فَكَانَ أَفْضَلُ الْخَلْقِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِهَا أَخَصَّ، وَأكملُهم بشروطها أحقَّ بها وأمسَّ، ولم يكن في عصر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَن قارَبَهُ في فضلِه، ولا داناهُ في كمالِه، خَلْقًا وخُلقًا، وقولًا وفعلًا، وبذلك وصفه الله تعالى في كتابه بقوله: ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴿٤﴾ ﴾ (القلم).

فَإِنْ قِيلَ: وَلَعَلَّ قَائِلًا يَقُولُ : إِنَّ فَضَائِلَهُ لَيْسَتْ دَلِيلًا عَلَى نُبُوَّتِهِ، وَلَمْ يُسْمَعْ بِنَبِيٍّ احْتَجَّ بِهَا عَلَى أُمَّتِهِ؛ لِأَنَّهُ قَدْ يُشَارَكُ فِيهَا حَتَّى يَأْتِيَ بِمُعْجِزٍ يَخْرِقُ الْعَادَةَ، فيُعلَم بالمعجِز أنه نبيٌّ لا بفضائِله وسمُوِّ شخصيتِه.

قِيلَ: الْفَضْلُ مِنْ أَمَارَاتِهَا ، وَكَمَالُ الْفَضْلِ صَعْبٌ ، فَصَارَ كَالْمُعْجِزِ.

وَمِمَّا يُوَضِّحُ ذَلِكَ: أَنَّ الْكَمَالَ الْمُعْتَبَرَ فِي الْبَشَرِ يَكُونُ مِنْ أَرْبَعَةِ أَوْجُهٍ :

أَحَدُهَا: كَمَالُ الخَلْقِ.

وَالثَّانِي: كَمَالُ الخُلُقِ.

وَالثَّالِثُ: فَضَائِلُ الْأَقْوَالِ.

وَالرَّابِعُ: فَضَائِلُ الْأَعْمَالِ.

وَهَذِهِ الأوجه الأربعة بِتَمَامِهَا قَدْ تَوَفَّرَتْ فِي النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فَأَمَّا الْوَجْهُ الأَوَّلُ: فَكَمَالُ خَلْقِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ اعْتِدَالِ صُورَتِهِ ، وَيَكُونُ بِأَرْبَعَةِ أَوْصَافٍ :

الوَصْفُ الأولُ: السَّكِينَةُ الْبَاعِثَةُ عَلَى الهَيْبَةِ وَالتَّعْظِيمُ الدَّاعِي إِلَى التَّقْدِيمِ وَالتَّسْلِيمِ، وَكَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْظَمَ مَهِيبٍ فِي النُّفُوسِ، حَتَّى ارْتَاعَتْ رُسُلُ كِسْرَى مِنْ هَيْبَتِهِ حِينَ أَتَوْهُ، وَإِنْ لَمْ يَتَعَاظَمْ بِأُهْبَةٍ وَسِلَاحٍ، وَلَمْ يَتَطَاوَلْ بِسَطْوَةٍ وَظُلْمٍ، بَلْ كَانَ بِالتَّوَاضُعِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَوْصُوفًا.

الوَصْفُ الثَّانِي: طَلَاقَةُ وَجْهِهِ، وَصَفَاءُ قَلْبِهِ مِمَّا أَوْرَثَهُ الْحُبَّ، وَكَانَ أَحَبَّ إِلَى أَصْحَابِهِ مِنَ الْآبَاءِ وَالْأَبْنَاءِ وَالدُّنْيَا كُلِّهَا.

الوَصْفُ الثَّالِثُ: حُسْنُ الْقَبُولِ الْجَالِبِ لِمَيْلِ الْقُلُوبِ حَتَّى تُسْرِعَ إِلَى طَاعَتِهِ وَتُذْعِنَ بِمُوَافَقَتِهِ، وَقَدْ كَانَ قَبُولُ مَنْظَرِهِ مُسْتَوْلِيًا عَلَى الْقُلُوبِ، إِلَّا مَنْ حَسَدَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ظُلْمًا وَكِبْرًا.

الوَصْفُ الرَّابِعُ: مَيْلُ النُّفُوسِ إِلَى مُتَابَعَتِهِ ، وَانْقِيَادُهَا لِمَا رَأَتْهُ مِنْ ثَبَاتِهِ عَلَى الْمَبْدَأ، وَمُصَابَرَتِهِ فِي سَبِيلِ نُصْرَةِ دَعْوَتِهِ.

وَأَمَّا الْوَجْهُ الثَّانِي: فِي كَمَالِ أَخْلَاقِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَيَكُونُ بِستِّ خِصَالٍ:

الخَصْلَةُ الأولَى: رَجَاحَةُ عَقْلِهِ وَصِدْقُ فَرَاسَتِهِ، وَقَدْ دَلَّ عَلَى ذَلِكَ صِحَّةُ رَأْيِهِ وَصَوَابُ تَدْبِيرِهِ.

الخَصْلَةُ الثَّانِيَةُ: ثَبَاتُهُ فِي الشَّدَائِدِ، وَصَبْرُهُ عَلَى الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ.

كَمَا جَاءَ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: **{ لَقَدْ أُخِفْتُ فِي اللهِ**

وَمَا يُخَافُ أَحَدٌ، وَلَقَدْ أُوذِيتُ فِي اللهِ وَمَا يُؤْذَى أَحَدٌ، وَلَقَدْ أَتَتْ عَلَيَّ ثَلَاثُونَ مِنْ بَيْنِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ وَمَا لِي وَلِبِلَالٍ طَعَامٌ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ إِلَّا شَيْءٌ يُوَارِيهِ إِبِطُ بِلَالٍ }(١).

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: « مَا شَبِعَ آلُ مُحَمَّدٍ مِنَ الشَّعِيرِ يَوْمَيْنِ حَتَّى قُبِضَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ »(٢).

وَمَنْ صَبَرَ عَلَى هَذِهِ الشَّدَائِدِ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ تَعَالَى امْتَنَعَ أَنْ يُرِيدَ بِذَلِكَ الدُّنْيَا الَّتِي حَارَبَتْهُ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِطَلَبِ الْآخِرَةِ.

الْخَصْلَةُ الثَّالِثَةُ: زُهْدُهُ فِي الدُّنْيَا وَإِعْرَاضُهُ عَنْهَا، وَقَنَاعَتُهُ بِالْبَلَاغِ مِنْهَا، فَلَمْ يَمِلْ إِلَى جَمَالِهَا.

قَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ عَنْ حَبِيبِ بْنِ أَبِي ثَابِتٍ عَنْ خَيْثَمَةَ: قِيلَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « إِنْ شِئْتَ أَنْ نُعْطِيَكَ خَزَائِنَ الأرض ومفاتيحها ما لم نُعطِه نبيًّا قبلَك، ولا نُعطِي أحدًا مِنْ بَعْدِكَ، وَلَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِمَّا لَكَ عِنْدَ الله، فَقَالَ: { اجْمَعُوهَا لِي فِي الْآخِرَةِ } فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي ذَلِكَ: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾ ﴾ (الفرقان) »(٣).

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: دَخَلَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ عَلَى حَصِيرٍ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ لَوِ اتَّخَذْتَ فِرَاشًا

---

١) رواه أحمد برقم (١٤٠٥٥)، وابن ماجه برقم (١٥١)، والترمذي برقم (٢٤٧٢)، وقال: حسن صحيح.
٢) رواه البخاري برقم (٥٤١٦)، باختلاف في الألفاظ، ومسلم برقم (٢٩٧٠) واللفظ له.
٣) انظر: تفسير ابن كثير (٦/ ٨٧).

أَوْثَرَ مِنْ هَذَا؟ فَقَالَ: { يَا عُمَرُ مَا لِي وَلِلدُّنْيَا، وَمَا لِلدُّنْيَا وَلِي، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا مَثَلِي وَمَثَلُ الدُّنْيَا إِلَّا كَرَاكِبٍ سَارَ فِي يَوْمٍ صَائِفٍ، فَاسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا }(١).

الْخَصْلَةُ الرَّابِعَةُ: تَوَاضُعُهُ لِلنَّاسِ وَهُمْ أَتْبَاعُهُ، وَلِينُ جَانِبِهِ وَهُوَ سَيِّدُهُمْ، يَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ، وَيَجْلِسُ عَلَى التُّرَابِ، وَيَمْتَزِجُ بِأَصْحَابِهِ وَجُلَسَائِهِ، فَلَا يَتَمَيَّزُ عَنْهُمْ إِلَّا بِحَيَائِهِ وَخُلُقِهِ، فَصَارَ بِالتَّوَاضُعِ مُتَمَيِّزًا، وَبِالتَّذْلِيلِ مُتَعَزِّزًا، وَلَقَدْ دَخَلَ عَلَيْهِ رَجُلٌ، فَكَلَّمَهُ، فَجَعَلَ تُرْعَدُ فَرَائِصُهُ، فَقَالَ لَهُ: { هَوِّنْ عَلَيْكَ، فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ، إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ }(٢)، وَهَذَا مِنْ شَرَفِ أَخْلَاقِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الْخَصْلَةُ الْخَامِسَةُ: حِلْمُهُ وَعَفْوُهُ، كَمَا حَدَثَ مَعَ ثُمَامَةَ بْنِ أَثَالٍ:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: « بَعَثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَيْلًا قِبَلَ نَجْدٍ، فَجَاءَتْ بِرَجُلٍ مِنْ بَنِي حَنِيفَةَ يُقَالُ لَهُ: ثُمَامَةُ بْنُ أَثَالٍ، فَرَبَطُوهُ بِسَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: { مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟ } فَقَالَ: عِنْدِي خَيْرٌ يَا مُحَمَّدُ، إِنْ تَقْتُلْنِي تَقْتُلْ ذَا دَمٍ، وَإِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ مَا شِئْتَ، فَتُرِكَ حَتَّى كَانَ الْغَدُ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: { مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟ } قَالَ: مَا قُلْتُ لَكَ إِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ، فَتَرَكَهُ حَتَّى كَانَ بَعْدَ الْغَدِ فَقَالَ: { مَا عِنْدَكَ

---

١) رواه أحمد برقم (٢٧٤٤) والحاكم (٧٨٥٨) وقال: صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه، وابن حبان في صحيحه برقم (٦٣٥٢).

٢) رواه ابن ماجه برقم (٣٣١٢)، وصحَّحه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (١٨٧٦).

يَا ثُمَامَةُ؟ } فَقَالَ: عِنْدِي مَا قُلْتُ لَكَ. فَقَالَ: { أَطْلِقُوا ثُمَامَةَ }، فَانْطَلَقَ إِلَى نَخْلٍ قَرِيبٍ مِنَ الْمَسْجِدِ فَاغْتَسَلَ، ثُمَّ دَخَلَ الْمَسْجِدَ، فَقَالَ: (أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله)، يَا مُحَمَّدُ، وَالله مَا كَانَ عَلَى الْأَرْضِ وَجْهٌ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ وَجْهِكَ، فَقَدْ أَصْبَحَ وَجْهُكَ أَحَبَّ الْوُجُوهِ إِلَيَّ، وَالله مَا كَانَ مِنْ دِينٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ دِينِكَ فَأَصْبَحَ دِينُكَ أَحَبَّ الدِّينِ إِلَيَّ، وَالله مَا كَانَ مِنْ بَلَدٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ بَلَدِكَ فَأَصْبَحَ بَلَدُكَ أَحَبَّ الْبِلَادِ إِلَيَّ، وَإِنَّ خَيْلَكَ أَخَذَتْنِي وَأَنَا أُرِيدُ الْعُمْرَةَ فَمَاذَا تَرَى؟ فَبَشَّرَهُ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَعْتَمِرَ، فَلَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ قَالَ لَهُ قَائِلٌ: صَبَأْتَ؟! قَالَ: لَا، وَلَكِنْ أَسْلَمْتُ مَعَ مُحَمَّدٍ رَسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَا وَالله لَا يَأْتِيكُمْ مِنَ الْيَمَامَةِ حَبَّةُ حِنْطَةٍ حَتَّى يَأْذَنَ فِيهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ »(١).

الْخَصْلَةُ السَّادِسَةُ: حِفْظُهُ لِلْعُهُودِ ، وَوَفَاؤُهُ بِالْوَعْدِ ، فَإِنَّهُ مَا نَقَضَ لِمُحَافِظٍ عَهْدًا وَلَا أَخْلَفَ لِمُرَاقِبٍ وَعْدًا ، يَرَى الْغَدْرَ مِنْ كَبَائِرِ الذُّنُوبِ ، وَالْإِخْلَافَ مِنْ مَسَاوِئِ الصِّفَاتِ .

وَأَمَّا الْوَجْهُ الثَّالِثُ: وَهُوَ فَضَائِلُ أَقْوَالِهِ ، فَمُعْتَبَرٌ بِعِدَّةِ خِصَالٍ:

الْخَصْلَةُ الأولَى: أَنَّهُ أُوتِيَ مِنَ الْحِكْمَةِ الْبَالِغَةِ وَالْعُلُومِ الْبَاهِرَةِ، وَهُوَ أُمِّيٌّ لَمْ يَقْرَأْ كِتَابًا ، وَلَا دَرَسَ عِلْمًا ، وَلَا صَحِبَ عَالِمًا وَلَا مُعَلِّمًا.

الْخَصْلَةُ الثَّانِيَةُ: حِفْظُهُ لِمَا أَطْلَعَهُ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ مِنْ قِصَصِ الْأَنْبِيَاءِ السَّابِقِينَ.

---

١) متفق عليه: رواه البخاري برقم (٤٣٧٢) ، ومسلم (١٧٦٤) .

الْخَصْلَةُ الثَّالِثَةُ: مَا اتَّصَفَ بِهِ مِنْ الأمر بمَحَاسِنِ الْأَخْلَاقِ، مِثْلُ صِلَةِ الْأَرْحَامِ، وَالْعَطْفِ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَالْأَيْتَامِ، ثُمَّ مَا نَهَى عَنْهُ مِنَ التَّبَاغُضِ وَالتَّحَاسُدِ، كَقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: { **لَا تَقَاطَعُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَحَاسَدُوا، وَكُونُوا إِخْوَانًا كَمَا أَمَرَكُمُ اللهُ** }(١)؛ لِتَكُونَ الْفَضَائِلُ فِيهِمْ أَكْثَرَ، وَمَحَاسِنُ الْأَخْلَاقِ بَيْنَهُمْ أَنْشَرَ، فَيَتَحَقَّقُ فِيهِمْ قَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ** ﴾ (آل عمران:١١٠).

الْخَصْلَةُ الرَّابِعَةُ: وُضُوحُ جَوَابِهِ إِذَا سُئِلَ، وَظُهُورُ حُجَّتِهِ إِذَا جُودِلَ.

وَمِنْ ذَلِكَ: عِنْدَمَا أَتَاهُ (أُبَيُّ بْنُ خَلَفٍ) وَفِي يَدِهِ عَظْمٌ رَمِيمٌ، وهو يفتُّه ويذروه فِي الْهَوَاءِ، وَهُوَ يَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ أَتَزْعُمُ أن الله يبعث هذا؟، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: { **نَعَمْ يُمِيتُكَ اللهُ تَعَالَى، ثُمَّ يَبْعَثُكَ، ثُمَّ يَحْشُرُكَ إِلَى النَّارِ** }، وَأَنْطَقَ اللهُ تَعَالَى رَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِبُرْهَانِ نُبُوَّتِهِ فَقَالَ: ﴿ **يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾** ﴾ (يس)(٢)، فَانْصَرَفَ مَبْهُوتًا، وَلَمْ يَدْرِ جَوَابًا.

وَلَمَّا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: { **لاَ عَدْوَى وَلاَ صَفَرَ وَلاَ هَامَةَ** }، فَقَالَ أَعْرَابِيٌّ: يَا رَسُولَ الله، فَمَا بَالُ إِبِلِي، تَكُونُ فِي الرَّمْلِ كَأَنَّهَا الظِّبَاءُ، فَيَأْتِي البَعِيرُ الأَجْرَبُ فَيَدْخُلُ بَيْنَهَا فَيُجْرِبُهَا؟ فَقَالَ: { **فَمَنْ أَعْدَى الأَوَّلَ؟** }(٣)، وَأَسْكَتَهُ.

الْخَصْلَةُ الْخَامِسَةُ: أَنَّهُ مَحْفُوظُ اللِّسَانِ مِنَ الْكَذِبِ، فَإِنَّهُ لَمْ يَزَلْ مَشْهُورًا بِالصِّدْقِ

---

١) رواه البخاري برقم (٦٠٦٤)، ومسلم برقم (٣٠).
٢) تفسير ابن كثير (٦/ ٥٢٩).
٣) متفق عليه: رواه البخاري برقم (٥٧١٧)، ومسلم برقم (٢٢٢١٠).

حَتَّى صَارَ بِالصِّدْقِ مَرْمُوقًا، وَكَانَتْ قُرَيْشٌ بِأَسْرِهَا تَتَيَقَّنُ صِدْقَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَكِنْ مِنْهُمْ مَنْ كَذَّبَهُ حَسَدًا، وَمِنْهُمْ مَنْ كَذَّبَهُ عِنَادًا، وَمِنْهُمْ مَنْ كَذَّبَهُ اسْتِبْعَادًا أَنْ يَكُونَ نَبِيًّا أَوْ رَسُولًا، وَلَوْ حَفِظُوا عَلَيْهِ كِذْبَةً نَادِرَةً فِي غَيْرِ الرِّسَالَةِ لَجَعَلُوهَا دَلِيلًا عَلَى تَكْذِيبِهِ.

الْخَصْلَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّهُ أَفْصَحُ النَّاسِ لِسَانًا، وَأَوْضَحُهُمْ بَيَانًا، وَأَوْجَزُهُمْ كَلَامًا، وَأَجْزَلُهُمْ أَلْفَاظًا، وَأَصَحُّهُمْ مَعَانِيَ، لَا يَظْهَرُ فِيهِ نَبْرَةُ التَّكَلُّفِ، وَهُوَ الْقَائِلُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **{ إِنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَيَّ، وَأَقْرَبَكُمْ مِنِّي فِي الْآخِرَةِ مَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي فِي الْآخِرَةِ مَسَاوِئُكُمْ أَخْلَاقًا، الثَّرْثَارُونَ، الْمُتَفَيْهِقُونَ الْمُتَشَدِّقُونَ }**(١).

وَأَمَّا الْوَجْهُ الرَّابِعُ: وَهُوَ فَضَائِلُ أَفْعَالِهِ فَمَعْلُومٌ بِعِدَّةِ خِصَالٍ:

الْخَصْلَةُ الأُولَى: حُسْنُ سِيرَتِهِ، وَصِحَّةُ سِيَاسَتِهِ.

الْخَصْلَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّهُ عَدَلَ فِيمَا شَرَعَهُ مِنَ الدِّينِ عَنْ غُلُوِّ النَّصَارَى فِي التَّشْدِيدِ، وَعَنِ الْيَهُودِ فِي التَّقْصِيرِ، وَمَا إِلَى التَّوَسُّطِ بَيْنَهُمَا، وَخَيْرُ الْأُمُورِ أَوْسَطُهَا، وَقَدْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **{ إِنَّ هَذَا الدِّينِ مَتِينٌ فَأَوْغِلُوا فِيهِ بِرِفْقٍ }**(٢).

الْخَصْلَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّهُ لَمْ يَمِلْ بِأَصْحَابِهِ إِلَى الدُّنْيَا كَمَا رَغَبَتِ الْيَهُودُ، وَلَا رَفَضَهَا كَمَا

---

١) رواه أحمد برقم (١٧٧٣٢)، وابن حبان في صحيحه برقم (٤٨٢)، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع الصغير برقم (١٥٣٥).

٢) رواه أحمد برقم (١٣٠٥٢) عن أنس. وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع برقم (٢٢٤٦).

تَرَهَّبَتِ النَّصَارَى، وَأَمَرَهُمْ فِيهَا بِالِاعْتِدَالِ، وَأَنْ يَطْلُبُوا مِنْهَا قَدْرَ الْكِفَايَةِ، وَيَعْدِلُوا عَنِ احْتِيَاجِ الزِّيَادَةِ.

الْخَصْلَةُ الرَّابِعَةُ: تَصْدِّيهِ لِمَعَالِمِ الدِّينِ وَنَوَازِلِ الْأَحْكَامِ، حَتَّى بَيَّنَ لِلْأُمَّةِ مَا يَحِلُّ وَيَحْرُمُ ، وَفَصَّلَ لَهُمْ مَا يَجُوزُ وَمَا لَا يَجُوزُ فِي أُمُورِ مَعَاشِهِمْ وَحَيَاتِهِمْ.

الْخَصْلَةُ الْخَامِسَةُ: قِيَامُهُ لِجِهَادِ الْأَعْدَاءِ فِي سَبِيلِ الْحَقِّ الَّذِي يَدْعُو إِلَيْهِ وَيُؤْمِنُ بِهِ.

الْخَصْلَةُ السَّادِسَةُ: تَحَلِّيهِ بِالثَّبَاتِ وَالشَّجَاعَةِ.

وَلْنَسْتَحْضِرْ هُنَا نِدَاءَهُ يَوْمَ حُنَيْنٍ: **{ أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبْ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ}**(١).

وَلَقَدْ فَزِعَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ لَيْلَةً فَخَرَجُوا نَحْوَ الصَّوْتِ فَاسْتَقْبَلَهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ اسْتَبْرَأَ الْخَبَرَ، وَهُوَ عَلَى فَرَسٍ لِأَبِي طَلْحَةَ عُرْيٍ، وَفِي عُنُقِهِ السَّيْفُ، وَهُوَ يَقُولُ: **{لَمْ تُرَاعُوا، لَمْ تُرَاعُوا}**، ثُمَّ قَالَ: **{وَجَدْنَاهُ بَحْرًا}**(٢). وَكَانَ الْفَرَسُ يُبْطِئُ فَمَا سَبَقَهُ فَرَسٌ بَعْدَ ذَلِكَ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا عَنْ ثِقَةٍ مِنْ أَنَّ اللهَ تَعَالَى سَيُنْصُرُهُ.

وقالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **{ إِنَّ اللهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا .. }**(٣).

وَقَالَ: **{ وَإِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الْأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ، وَإِذَا وُضِعَ السَّيْفُ فِي أُمَّتِي لَمْ**

---

١) متفق عليه: رواه البخاري برقم (٢٨٦٤)، ومسلم برقم (١٧٧٦).
٢) متفق عليه: رواه البخاري برقم (٢٩٠٨)، ومسلم برقم (٢٣٠٧).
٣) رواه مسلم برقم (٢٨٨٩).

يُرْفَعْ عَنْهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَلْحَقَ قَبَائِلُ مِنْ أُمَّتِي بِالْمُشْرِكِينَ، وَحَتَّى تَعْبُدَ قَبَائِلُ مِنْ أُمَّتِي الْأَوْثَانَ، وَإِنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي كَذَّابُونَ ثَلَاثُونَ، كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ لَا نَبِيَّ بَعْدِي، وَلَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ }(١).

وَكَفَى بِهَذَا قِيَامًا بِحَقِّهِ ، وَشَاهِدًا عَلَى صِدْقِهِ.

الْخَصْلَةُ السَّابِعَةُ: مَا مُنِحَ مِنَ السَّخَاءِ وَالْجُودِ حَتَّى جَادَ بِكُلِّ مَوْجُودٍ، وَآثَرَ بِكُلِّ مَطْلُوبٍ وَمَحْبُوبٍ، وَمَاتَ وَدِرْعُهُ مَرْهُونَةٌ عِنْدَ يَهُودِيٍّ عَلَى صَاعٍ مِنْ شَعِيرٍ لِطَعَامِ أَهْلِهِ، وَقَدْ مَلَكَ جَزِيرَةَ الْعَرَبِ، وَعِنْدَهُ مَا عِنْدَهُ مِنَ الْأَمْوَالِ الَّتِي جَادَ بِهَا جَمِيعًا عَلَى أَنْصَارِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ بِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (٢).

***

١) رواه أبو داود برقم (٤٢٥٢)، وروى أحمد بعضه برقم (٢٢٤٥٢)، وصحَّحه الألباني في مشكاة المصابيح برقم (٥٤٠٦). وانظر: أعلام النبوة للماوردي ، ص (٢٣٠- ٢٣١).
٢) المصدر السابق ، ص (٢٣١- ٢٣٢)، بتصرف.

الدَّلِيلُ الثَّالِثُ:

بِشَارَةُ الأَنْبِيَاءِ وَالْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ بِمَبْعَثِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

قَالَ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ (الأعراف).

وَكَانَ نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ ثَمَرَاتِ دَعَوَاتِ الْخَلِيلِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، كَمَا جَاءَ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾ (البقرة).

وَكَانَ بِشَارَةَ المسيح عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، كَمَا جَاءَ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾ (الصف: ٦).

وأَعْلَمَ اللهُ جَمِيعَ الْأَنْبِيَاءِ بِبَعْثِهِ، وَأَمَرَهُمْ بِتَبْلِيغِ أَتْبَاعِهِمْ بِوُجُوبِ الْإِيمَانِ بِهِ، وَاتِّبَاعِهِ إِنْ هُمْ أَدْرَكُوهُ، كَمَا جَاءَ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ (آل عمران).

* تَوْضِيحٌ وَبَيَانٌ :

أولا: بِشَارَةُ التَّوْرَاةِ بِمَبْعَثِهِ :

لَقَدْ صَرَّحَتِ التَّوْرَاةُ الَّتِي بَيْنَ أَيْدِينَا الْيَوْمَ بِمَبْعَثِ "حَمْدُوت"، وَهُوَ الَّذِي تَحْمَدُهُ كُلُّ الْأُمَمِ – كَمَا جَاءَ فِي حَاشِيَةِ الْأَصْلِ الْعِبْرِيِّ – وَهِيَ تَعْنِي بِالْعَرَبِيَّةِ مَحْمُودًا أَوْ مُحَمَّدًا أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ، وَلَكِنَّ مُتَرْجِمِي الْعَهْدِ الْقَدِيمِ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ فَضَّلُوا أَنْ يَسْتَخْدِمُوا عِبَارَةَ " مُشْتَهَى كُلِّ الْأُمَمِ " بَدَلًا مِنْ مُحَمَّدٍ أَوْ مَحْمُودٍ لِصَرْفِ أَذْهَانِ قُرَّاءِ التَّوْرَاةِ عَنْ بِشَارَةِ التَّوْرَاةِ بِمَبْعَثِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

تَقُولُ التَّوْرَاةُ: « لِأَنَّهُ هَكَذَا قَالَ رَبُّ الْجُنُودِ، هِيَ مَرَّةٌ بَعْدَ قَلِيلٍ فَأُزَلْزِلُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَالْبَحْرَ وَالْيَابِسَةَ (٧) وَأُزَلْزِلُ كُلَّ الْأُمَمِ وَيَأْتِي مُشْتَهَى كُلِّ الْأُمَمِ فَأَمْلَأُ هَذَا الْبَيْتَ عَدْلًا »(١).

وَلَمْ تَقْتَصِرْ بِشَارَةُ التَّوْرَاةِ عَلَى ذِكْرِ اسْمِ النَّبِيِّ الْمَبْعُوثِ مُحَمَّدٍ، بَلْ حَدَّدَتْ نَسَبَهُ، وَأَنَّهُ سَيَكُونُ مِنْ بَنِي إِسْمَاعِيلَ لَا مِنْ بَنِي إِسْحَاقَ، فَقَدْ جَاءَ فِي سِفْرِ التَّثْنِيَةِ الْإِصْحَاحِ ١٨ قَوْلُ اللهِ تَعَالَى لِمُوسَى: « (١٥) يُقِيمُ لَكَ الرَّبُّ إِلَهُكَ نَبِيًّا مِنْ وَسَطِكَ مِنْ إِخْوَتِكَ »، ثُمَّ يُتَابِعُ كَلَامَهُ فِي الْإِصْحَاحِ نَفْسِهِ « (١٨) أُقِيمُ لَهُمْ نَبِيًّا مِنْ وَسَطِ إِخْوَتِهِمْ مِثْلَكَ، وَأَجْعَلُ كَلَامِي فِي فَمِهِ فَيُكَلِّمُهُمْ بِكُلِّ مَا أُوصِيهِ بِهِ ».

بَلْ إِنَّ التَّوْرَاةَ لَمْ تَقْتَصِرْ عَلَى تَحْدِيدِ نَسَبِ النَّبِيِّ الْمَبْعُوثِ أَيْضًا بَلْ حَدَّدَتْ زَمَنَ

---

١) سفر حجي، الإصحاح الثاني رقم (٦).

بَعْثَتِهِ تَحْدِيدًا تَقْرِيبِيًّا فِي خَبَرِ النَّبِيِّ دَانْيَالَ عِنْدَمَا كَانَ فِي الْأَسْرِ، فَقَدْ جَاءَ فِي الْإِصْحَاحِ التَّاسِعِ مِنْ سِفْرِ دَانْيَالَ مَا يَلِي: « (٢٤) سَبْعُونَ أُسْبُوعًا قُضِيَتْ عَلَى شَعْبِكَ وَعَلَى مَدِينَتِكَ الْمُقَدَّسَةِ لِتَكْمِيلِ الْمَعْصِيَةِ وَتَتْمِيمِ الْخَطَايَا وَلِكَفَّارَةِ الْإِثْمِ وَلِيُؤْتَى بِالْبِرِّ الْأَبَدِيِّ وَلِخَتْمِ الرُّؤْيَا وَالنُّبُوَّةِ وَلِمَسْحِ قُدُوسِ الْقُدُوسِيْنَ ».

وَالْأُسْبُوعُ الْمُرَادُ هُنَا هُوَ أُسْبُوعُ سِنِينَ؛ لِأَنَّ الْيَوْمَ فِي قَضَاءِ الله وَعِقَابِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ بِسَنَةٍ، كَمَا جَاءَ فِي الْإِصْحَاحِ ١٤ مِنْ سِفْرِ الْعَدَدِ: « (٣٣) وَبَنُوكُمْ يَكُونُونَ رُعَاةً فِي الْقَفْرِ أَرْبَعِينَ سَنَةً (٣٤) كَعَدَدِ الْأَيَّامِ الَّتِي نَجَّسْتُمْ فِيهَا الْأَرْضَ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، لِلسَّنَةِ يَوْمٌ ».

وَبِنَاءً عَلَى ذَلِكَ فَإِنَّ رُؤْيَا دَانْيَالَ تَعْنِي أَنَّهُ سَيَمُرُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ عَذَابٌ مِقْدَارُهُ (٧ × ٧٠ = ٤٩٠) عَامًا حَتَّى يَجِيءَ لَهُمُ الْفَرَجُ عَلَى يَدِ خَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِذَا عَلِمْنَا أَنَّ رِحْلَةَ الْعَذَابِ هَذِهِ قَدْ بَدَأَتْ سَنَةَ (١٣٢م) حَيْثُ أَرْسَلَ الْإِمْبِرَاطُورُ أَدْرِيَانُوسُ عَلَيْهِمْ جَيْشًا خَرَّبَ مَدِينَتَهُمْ أُورْشَلِيمَ وَلَمْ يُبْقِ فِيهَا حَجَرًا عَلَى حَجَرٍ، وَاسْتَمَرَّ اضْطِهَادُهُمْ حَتَّى سَنَةِ (٦٢٨م) الَّتِي تَمَّ فِيهَا فَتْحُ الْقُدْسِ عَلَى يَدِ الْمُسْلِمِينَ، لَمْ يَسْتَرِيحُوا خِلَالَهَا غَيْرَ (١٤ سَنَةً) مِنْ سَنَةِ (٦١٤م – ٦٢٨م) حِينَ دَخَلَ الْفُرْسُ أُورْشَلِيمَ وَرَفَعُوا الظُّلْمَ عَنِ الْيَهُودِ، وَإِذَا حَسَبْنَا هَذِهِ الْمُدَّةَ الَّتِي قَضَاهَا بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي الْعَذَابِ لَوَجَدْنَاهَا (٤٩٠ عَامًا) كَمَا قَالَ دَانْيَالُ.

ثانيًا: بشَارَةُ الإنْجِيل بمَبْعَثِهِ :

وَكَمَا بَشَّرَتِ التَّوْرَاةُ بِمَبْعَثِ رَسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَدْ بَشَّرَ بِهِ الْإِنْجِيلُ أَيْضًا، وَذَلِكَ حِينَ بَشَّرَ بِـ "الفارقليط". وَيَعْنِي بِالْعِبْرِيَّةِ "الْمَحْمُودَ الصِّفَاتِ" ،

وَيُسَمَّى بِالْعَرَبِيَّةِ "مَحْمُودٌ، أَوْ مُحَمَّدٌ، أَوْ أَحْمَدُ" ، وَهَذَا مَا جَرَى عَلَيْهِ مُتَرْجِمُو إِنْجِيلِ "بِرْنَابَا" فِي الْإِصْحَاحِ ٤١، حَيْثُ جَاءَ فِيهِ « (٢٧) مَا أَسْعَدَ الزَّمَنَ الَّذِي سَيَأْتِي فِيهِ إِلَى الْعَالَمِ (٢٨) صَدِّقُونِي إِنِّي رَأَيْتُهُ وَقَدَّمْتُ لَهُ الِاحْتِرَامَ، كَمَا رَآهُ كُلُّ نَبِيٍّ (٢٩) لِأَنَّ اللهَ يُعْطِيكُمْ رُوحَهُ نُبُوَّةً (٣٠) وَلَمَّا رَأَيْتُهُ امْتَلَأْتُ عَزَاءً قَائِلًا يَا مُحَمَّدُ لِيَكُنِ اللهُ مَعَك وَلْيَجْعَلْنِي أَهْلًا أَنْ أَحُلَّ سِيَرَ حِذَائِكَ (٣١) لِأَنِّي إِنْ نُلْتُ هَذَا صِرْتُ نَبِيًّا عَظِيمًا وَقُدُّوسَ اللهِ ».

وَلَكِنَّ مُتَرْجِمِي إِنْجِيلِ يُوحَنَّا فَضَّلُوا أَنْ يُتَرْجِمُوا كَلِمَةَ "الفارقليط" الْوَارِدَةَ فِي الْأَصْلِ بِكَلِمَةِ "الْمُعَزِّي" بَدَلًا مِنْ "مُحَمَّدٍ" الَّتِي فَضَّلَهَا مُتَرْجِمُو إِنْجِيلِ بِرْنَابَا؛ لِأَنَّ مُتَرْجِمِي هَذَا الْإِنْجِيلِ – إِنْجِيلِ يُوحَنَّا – إِلَى الْعَرَبِيَّةِ أَرَادُوا أَنْ يُبْعِدُوا اسْمَ مُحَمَّدٍ؛ لِئَلَّا تَقُومَ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ بِعَدَمِ الْإِيمَانِ بِهِ، فَقَدْ جَاءَ فِي إِنْجِيلِ يُوحَنَّا الْإِصْحَاحِ ١٤: « (٢٦) وَأَمَّا الْمُعَزِّي الرُّوحُ الْقُدُسِ الَّذِي سَيُرْسِلُهُ الْأَبُ بِاسْمِي فَهُوَ يُعَلِّمُكُمْ كُلَّ شَيْءٍ، وَيُذَكِّرُكُمْ بِكُلِّ مَا قُلْتُهُ لَكُمْ ».

وَجَاءَ فِي الْإِصْحَاحِ ١٥: « (٢٦) وَمَتَّى جَاءَ الْمُعَزِّي الَّذِي سَأُرْسِلُهُ إِلَيْكُمْ مِنَ الْأَبِ رُوحِ الْحَقِّ مِنَ عِنْدِ الْأَبِ يَنْبَثِقُ فَهُوَ يَشْهَدُ لِي (٢٧) وَتَشْهَدُونَ أَنْتُمْ أَيْضًا لِأَنَّكُمْ مَعِي مِنَ الِابْتِدَاءِ ».

وَفِعْلًا فَقَدْ شَهِدَ مُحَمَّدٌ لِعِيسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ بِالنُّبُوَّةِ، وَأَمَرَ الْمُسْلِمِينَ بِالْإِيمَانِ بِهِ كَرَسُولٍ مِنْ عِنْدِ اللهِ، وَجَاءَ فِي الْإِصْحَاحِ ١٦: « (٧) لِكَيْ أَقُولَ لَكُمُ الْحَقَّ إِنَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ أَنْ أَنْطَلِقَ؛ لِأَنَّهُ إِنْ لَمْ أَنْطَلِقْ لَا يَأْتِيكُمُ الْمُعَزِّي وَلَكِنْ إِنْ ذَهَبْتُ أَرْسَلَهُ إِلَيْكُمْ ».

وَيُتَابِعُ قَوْلَهُ فِي الْإِصْحَاحِ نَفْسِهِ: « (١٢) إِنَّ لِي أُمُورًا كَثِيرَةً لِأَقُولَ لَكُمْ، وَلَكِنْ

لَا تَسْتَطِيعُونَ أَنْ تَحْتَمِلُوا الْآنَ (١٣) وَأَمَّا مَتَى جَاءَ ذَاكَ الرُّوحُ الْحَقُّ فَهُوَ يُرْشِدُكُمْ إِلَى جَمِيعِ الْحَقِّ؛ لِأَنَّهُ لَا يَتَكَلَّمُ مِنْ نَفْسِهِ بَلْ كُلُّ مَا يَسْمَعُ يَتَكَلَّمُ بِهِ وَيُخْبِرُكُمْ بِأُمُورٍ آتِيَةٍ (١٤) ذَاكَ يُمَجِّدُنِي.... ». وَفِعْلًا فَإِنَّ قَوْمَ مُوسَى لَا يَحْتَمِلُونَ تِلْكَ الشَّرِيعَةَ الْأَبَدِيَّةَ مِنْ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لِأَنَّ التَّطَوُّرَ الْبَشَرِيَّ لَا يَسْمَحُ لَهُمْ بِتَلَقِّيهَا بَعْدُ؛ وَلِأَنَّهُمْ يَحْتَاجُونَ إِلَى تَرْبِيَةٍ تمتد أمدًا ليصلحوا لتلقي آخر الشرائع.

وَلَمْ تَقْتَصِرْ بِشَارَةُ الْإِنْجِيلِ عَلَى ذِكْرِ اسْمِ رَسُولِ الله مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَلْ ذَكَرَتْ نَسَبَهُ أَيْضًا، وأَنَّهُ سَيَكُونُ مِنْ بَنِي إِسْمَاعِيلَ، لَا مِنْ بَنِي إِسْحَاقَ، فَقَدْ جَاءَ فِي إِنْجِيلِ بِرْنَابَا فِي الْإِصْحَاحِ ٤٣: « (٢٥) مَتَى جَاءَ رَسُولُ الله فَمِنْ نَسْلِ مَنْ يَكُونُ؟ (٢٦) أَجَابَ التَّلَامِيذُ: مِنْ دَاوُدَ (٢٧) فَأَجَابَ يَسُوعُ: لَا تَغْشَوْا أَنْفُسَكُمْ (٢٨) لِأَنَّ دَاوُدَ يَدْعُوهُ فِي الْأَزَلِ الرُّوحَ قَائِلًا: قَالَ اللهُ لِرَبِّي: اجْلِسْ عَنْ يَمِينِي حَتَّى أَجْعَلَ أَعْدَاءَكَ مَوْطِئًا لِقَدَمَيْكَ (٢٩) يُرْسِلُ اللهُ قَضِيبَكَ الَّذِي سَيَكُونُ ذَا سُلْطَانٍ فِي وَسَطِ أَعْدَائِكَ (٣٠) صَدِّقُونِي لِأَنِّي أَقُولُ لَكُمْ الْحَقَّ إِنَّ الْعَهْدَ صَنَعَ بِإِسْمَاعِيلَ لَا بِإِسْحَاقَ ».

وَقَدْ كَانَ النَّصَارَى يُضِيفُونَ إِلَى الْبِشَارَاتِ الْوَارِدَةِ فِي الْإِنْجِيلِ بِمَبْعَثِ مُحَمَّدٍ، الْبِشَارَات الواردة في التوراة أيضًا، ويعتبرونه كتابًا مقدسًا لهم أيضًا؛ لِأَنَّ إِنْجِيلَ (مَتَّى) يَنْقُلُ فِي الْإِصْحَاحِ الْخَامِسِ قَوْلَ عِيسَى: « (١٧) لَا تَظُنُّوا أَنِّي جِئْتُ لِأَنْقُضَ النَّامُوسَ أَوِ الْأَنْبِيَاءَ، مَا جِئْتُ لِأَنْقُضَ بَلْ لِأُكْمِلَ ».

ثالثًا: تَوَقُّعُ الأحبار والرُّهبان بمبعثه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

عُرِفَ عِنْدَ الْكُهَّانِ، وَشَاعَ بَيْنَ النَّاسِ قُرْبُ مَبْعَثِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حَتَّى أَصْبَحَ الْحَدِيثُ عَنْهُ فِي دَخِيلَةِ كُلِّ نَفْسٍ، وَعَلَى كُلِّ لِسَانٍ. ومن ذلك:

(أ)- إِخْبَارُ رُهْبَانِ النَّصَارَى وَرِجَالَاتِهَا بِقُرْبِ مَبْعَثِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : مِثْلَ:

• إِخْبَارِ (بَحِيرَا) رَاهِبِ بُصْرَى، عِنْدَمَا سَافَرَ الرَّسُولُ مَعَ عَمِّهِ إِلَى بِلَادِ الشَّامِ.

• إِخْبَارِ (نِسْطُورا) الرَّاهِبِ، عِنْدَمَا سَافَرَ الرَّسُولُ إِلَى بِلَادِ الشَّامِ ثَانِيَةً بِرِفْقَةِ (مَيْسَرَةَ) فِي تِجَارَةٍ لِخَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا الَّتِي تَزَوَّجَهَا الرَّسُولُ فِيمَا بَعْدُ.

• إِخْبَارِ (رَاهِبِ) عَمُورِيَّةَ الَّذِي آلَ إِلَيْهِ أَمْرُ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَلَمَّا حَضَرَتِ الْوَفَاةُ هَذَا الرَّاهِبَ قَالَ لِسَلْمَانَ: « إِنَّهُ أَظَلَّ زَمَانُ نَبِيٍّ مَبْعُوثٍ بِدِينِ إِبْرَاهِيمَ، يَخْرُجُ بِأَرْضِ الْعَرَبِ، مُهَاجِرُهُ إِلَى أَرْضٍ بَيْنَ حَرَّتَيْنِ بَيْنَهُمَا نَخْلٌ، بِهِ عَلَامَاتٌ لَا تَخْفَى، يَأْكُلُ الْهَدِيَّةَ، وَلَا يَأْكُلُ الصَّدَقَةَ، بَيْنَ كَتِفَيْهِ خَاتَمُ النُّبُوَّةِ، فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَلْحَقَ بِتِلْكَ الْبِلَادِ فَافْعَلْ »(١).

• إِخْبَارِ سَيْفِ بْنِ ذِي يَزَنَ (النُّعْمَانِ بْنِ قَيْسٍ) بِقُرْبِ مَبْعَثِهِ، وَذَلِكَ: أَنَّهُ لَمَّا ظَهَرَ سَيْفُ بْنُ ذِي يَزَنَ عَلَى الْحَبَشَةِ – بَعْدَ مَوْلِدِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِسَنَتَيْنِ، أَتَتْهُ وُفُودُ الْعَرَبِ تُهَنِّئُهُ، وَفِيهِمْ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ جَدُّ رَسُولِ اللهِ، فَقَالَ سَيْفٌ لِعَبْدِ الْمُطَّلِبِ – بِاعْتِبَارِهِ زَعِيمَ مَكَّةَ : « إِذَا وُلِدَ بِتِهَامَةَ غُلَامٌ بِهِ عَلَامَةٌ، بَيْنَ كَتِفَيْهِ شَامَةٌ، كَانَتْ لَهُ الْإِمَامَةُ، وَلَكُمْ بِهِ الزَّعَامَةُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ...

ثم قال: هَذَا حِينُهُ الَّذِي يُولَدُ فِيهِ، أوقد وُلِدَ، وَاسْمُهُ مُحَمَّدٌ، يَمُوتُ أَبُوهُ وَأُمُّهُ، وَيَكْفُلُهُ جَدُّهُ وَعَمُّهُ، وَلَدْنَاهُ مِرَارًا وَاللهُ بَاعِثُهُ جِهَارًا، وَجَاعِلٌ لَهُ مِنَّا أَنْصَارًا، يُعِزُّ

---

١) السيرة النبوية لابن كثير (١/ ٣٠٠)، ودلائل النبوة، لأبي نعيم الأصبهاني برقم (١٩٩).

بِهِمْ أَوْلِيَاءَهُ وَيُذِلُّ بِهِمْ أَعْدَاءَهُ، وَيَضْرِبُ بِهِمُ النَّاسَ عَنْ عُرْضٍ، وَيَسْتَبِيحُ بِهِمْ كَرَائِمَ الْأَرْضِ، يَكْسِرُ الْأَوْثَانَ وَيَخْمِدُ النِيرَانَ، يَعْبُدُ الرَّحْمَنَ وَيَدْحَرُ الشَّيْطَانَ، قَوْلُهُ فَصْلٌ، وَحُكْمُهُ عَدْلٌ، يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَيَفْعَلُهُ، وَيَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُبْطِلُهُ.. »(١).

• إِخْبَارِ الرَّاهِبِ بكا – فِي بِلَادِ الشَّامِ – أَبَانَ بْنِ سَعِيدٍ بِقُرْبِ مَبْعَثِ النبيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، حَتَّى قَالَ أَبَانُ: فَوَصَفَهُ، فَمَا أَخْطَأَ فِي وَصْفِهِ شَيْئًا، ثُمَّ قَالَ لِي: « هُوَ وَاللهِ نَبِيُّ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَاللهِ لَيَظْهَرَنَّ »(٢).

(ب)- إِخْبَارُ أَحْبَارِ الْيَهُودِ وَرِجَالَاتِهَا بِقُرْبِ مَبْعَثِهِ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، وَنَذْكُرُ مِنْ ذَلِكَ:

• إِخْبَارُ ابْنِ الهَيَّبَانِ الَّذِي خَرَجَ مِنْ بِلَادِ الشَّامِ، وَنَزَلَ فِي بَنِي قُرَيْظَةَ، ثُمَّ تُوفِّيَ قَبْلَ الْبَعْثَةِ النَّبَوِيَّةِ بِسَنَتَيْنِ، فَإِنَّهُ لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ قَالَ لِبَنِي قُرَيْظَةَ: « يَا مَعْشَرَ يَهُودٍ، مَا تَرَوْنَهُ أَخْرَجَنِي مِنْ أَرْضِ الْخَمْرِ وَالْخَمِيرِ – الشَّامِ – إِلَى أَرْضِ الْبُؤْسِ وَالْجُوعِ – يَعْنِي: الْحِجَازَ-؟ قَالُوا: أَنْتَ أَعْلَمُ، قَالَ: إِنِّي قَدِمْتُ هَذِهِ الْبَلْدَةَ أَنْتَظِرُ خُرُوجَ نَبِيٍّ قَدْ أَظَلَّ زَمَانُهُ، وَكُنْتُ أَرْجُو أَنْ يُبْعَثَ فَأَتَّبِعَهُ »(٣).

• مَا حَدَّثَ بِهِ سَلَمَةُ بْنُ سَلَّامِ بْنِ وَقَشٍ – مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ – قَالَ: « كَانَ لَنَا جَارٌ مِنْ يَهُودِ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ يُقَالُ لَهُ: يُوشَعُ، أَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى مَكَّةَ وَالْيَمَنِ، وَقَالَ: نَبِيٌّ يُبْعَثُ مِنْ نَحْوِ هَذِهِ الْبِلَادِ، قَالُوا: مَنْ يَرَاهُ؟ فَنَظَرَ إِلَيَّ- إِلَى سَلَمَةَ- وَأَنَا مِنْ أَحْدَثِهِمْ

---

١) السيرة النبوية لابن كثير (١/ ٣٣٥- ٣٣٦)، ودلائل النبوة، لأبي نعيم الأصبهاني برقم (٥٠).
٢) الخصائص الكبرى (١/ ٤١١)، والسيرة الحلبية لعلي بن إبراهيم الحلبي (١/ ٢٦٩).
٣) السيرة النبوية لابن كثير (١/ ٢٩٥)، دلائل النبوة ، لأبي نعيم الأصبهاني برقم (٤٢).

سِنًّا فَقَالَ: إِنْ يَسْتَنْفِدْ هَذَا الْغُلَامُ عُمُرَهُ يُدْرِكْهُ »[١].

وَقَدْ شَاعَ حَدِيثُ ذَلِكَ، وَانْتَشَرَ بَيْنَ الْيَهُودِ وَغيْرِهِمْ حَتَّى بَلَغَ دَرَجَةَ الْقَطْعِ عِنْدَهُمْ، وَبِنَاءً عَلَيْهِ كَانَ الْيَهُودُ يَقُولُونَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ: إِنَّه قَدْ تَقَارَبَ زَمَانُ نَبِيٍّ يُبْعَثُ الْآنَ، نُقْتُلُكُمْ مَعَهُ قَتْلَ عَادٍ وَإِرَم [٢].

(ج) إِخْبَارُ الْكُهَّانِ الَّذِين لَهُمُ اتِّصَالٌ بِالْجِنِّ ؛ كَشِقّ وَسَطيح وَغَيْرِهِمَا.

(د) الرُّؤَى الْكَثِيرَةُ الَّتِي رَآهَا أُنَاسٌ عَدِيدُونَ، وَكُلُّهَا تَحْمِلُ الْبِشَارَةَ بِمَبْعَثِ رَسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، نَذْكُرُ مِنْ ذَلِكَ:

• رُؤْيَا عَمْرِو بْنِ مُرَّةَ الْجُهَنِيِّ، قَالَ: « خَرَجْتُ حَاجًّا فِي جَمَاعَةٍ مِنْ قَوْمِي فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَرَأَيْتُ فِي نَوْمِي وَأَنَا بِمَكَّةَ نُورًا سَاطِعًا خَرَجَ مِنَ الْكَعْبَةِ حَتَّى وَصَلَ إِلَى جَبَلِ يَثْرِبَ وَأَشْعَرَ وَجُهَيْنَةَ، فَسَمِعْتُ صَوْتًا بَيْنَ النُّورِ وَهُوَ يَقُولُ: انْقَشَعَتِ الظَّلْمَاءُ، وَسَطَعَ الضِّيَاءُ، وَبُعِثَ خَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ... »[٣].

• رُؤْيَا عَبْدِ الْمُطَّلِبِ الَّتِي رَوَاهَا بِنَفْسِهِ: « إِنِّي رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ وَأَنَا نَائِمٌ فِي الْحِجْرِ كَأَنَّ شَجَرَةً نَبَتَتْ قَدْ نَالَ رَأْسُهَا السَّمَاءَ، وَضَرَبَتْ بِأَغْصَانِهَا الْمَشْرِقَ وَالْمَغْرِبَ، وَمَا

---

١) رواه الحاكم في مستدركه برقم (٥٧٦٤)، وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. وانظر: السيرة النبوية لابن كثير (١/ ٢٩٣)، وصفة الصفوة (١/ ٨٩)، ودلائل النبوة، لأبي نعيم الأصبهاني برقم (٣٤، ٣٦).

٢) السيرة النبوية لابن كثير (١/ ٢٩١)، ودلائل النبوة لأبي نعيم الأصبهاني برقم (٢٢٣).

٣) السيرة النبوية لابن كثير (١/ ٣١٤)، ودلائل النبوة لأبي نعيم الأصبهاني برقم (١٣٢).

رَأَيْتُ نُورًا أَزْهَرَ مِنْهَا أَعْظَمَ مِنْ نُورِ الشَّمْسِ سَبْعِينَ ضِعْفًا، وَرَأَيْتُ الْعَرَبَ وَالْعَجَمَ سَاجِدِينَ لَهَا، وَهِيَ تَزْدَادُ كُلَّ سَاعَةٍ عِظَمًا وَنُورًا وَارْتِفَاعًا، سَاعَةً تَخْفَى وَسَاعَةً تَزْهَرُ، وَرَأَيْتُ رَهْطًا مَنْ قُرَيْشٍ قَدْ تَعَلَّقُوا بِأَغْصَانِهَا، وَرَأَيْتُ قَوْمًا مِنْ قُرَيْشٍ يُرِيدُونَ قَطْعَهَا، فَإِذَا دَنَوْا مِنْهَا أَخَّرَهُمْ شَابٌّ لَمْ أَرَ قَطُّ أَحْسَنَ مِنْهُ وَجْهًا وَلَا أَطْيَبَ مِنْهُ رِيحًا، فيكسر أظهرهم، ويقلع أعينهم، فَرفعت يدي لِأتنَاولَ مِنْهَا نَصِيبًا، فَمَنَعَنِي الشَّابُّ، فَقُلْتُ: لِمَنِ النَّصِيبُ؟ فَقَالَ: النَّصِيبُ لِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ تَعَلَّقُوا بِهَا وَسَبَقُوكَ إِلَيْهَا. فَانْتَبَهْتُ مَذْعُورًا فَزِعًا »(١).

وَظَاهِرٌ فِي تَعْبِيرِ هَذِهِ الرُّؤْيَا أَنَّ الشَّجَرَةَ هِيَ الْإِسْلَامُ، وَأَنَّ الشَّابَّ هُوَ رَسُولُ الله، وَأَنَّ الَّذِينَ تَعَلَّقُوا بِهَا هُمْ صَحَابَةُ رَسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَإِذَا كَانَتِ الرُّؤَى وَالْأَحْلَامُ – كَمَا يَقُولُ أَصْحَابُ مَدْرَسَةِ التَّحْلِيلِ النَّفْسِيِّ – هِيَ هُمُومُ الْمَاضِي وَآمَالُ الْمُسْتَقْبَلُ يَقْذِفُهَا اللَّاشُعُورُ إِلَى الْمُخَيِّلَةِ أَثْنَاءَ النَّوْمِ، فَإِنَّ هَذِهِ الرُّؤَى تُعَبِّرُ عَنْ أَمَلِ النَّاسِ فِي ابْتِعَاثِ نَبِيٍّ يَزْرَعُ الْخَيْرَ فِي الْأَرْضِ، وَيَنْشُرُ زُهُورَ الْحُبِّ فِي الْقُلُوبِ.

إِنَّ كُلَّ هَذِهِ الْأُمُورِ مُجْتَمِعَةً (بِشَارَاتِ الْكُتُبِ الْمُقَدَّسَةِ، إِخْبَارِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، إِخْبَارِ الْكُهَّانِ، الرُّؤَى وَالْأَحْلَامِ) أَوْجَدَتْ جَوًّا فِكْرِيًّا وَنَفْسِيًّا مَلِيئًا بِالتَّرَقُّبِ لِظُهُورِ نَبِيٍّ، يَكُونُ الْخَيْرُ عَلَى يَدَيْهِ، فَلَمَّا بُعِثَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ ذَلِكَ مِنْ أَدِلَّةِ ثُبُوتِ نُبُوءَتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

١) السيرة النبوية لابن كثير (١/ ٣١٠)، ودلائل النبوة لأبي نعيم الأصبهاني برقم (٥١).

الدَّلِيلُ الرَّابِعُ :

شَهَادَةُ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(١)

لَقَدْ تَعَدَّدَتِ الْأَدِلَّةُ عَلَى نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَكِنْ تَبْقَى شَهَادَةُ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَهُ بِالرِّسَالَةِ أَقْوَى دَلِيلٍ عَلَى صِدْقِهِ فِيمَا بَلَّغَ عَنْ رَبِّ الْعِزَّةِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ وَذَلِكَ لِأَسْبَابٍ كَثِيرَةٍ، أَهَمُّهَا أَنَّ الْحَقَّ تَبَارَكَ وتَعَالَى لَنْ يُوَفِّقَ إِنْسَانًا كَذَّابًا مُدَّعِيًا عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ، بَلْ يُؤَيِّدُهُ بِالْمُعْجِزَاتِ الْبَاهِرَاتِ.

وَلْنَنْظُرْ إِلَى الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ الْمُخْتَلِفَةِ، الَّتِي تَحَدَّثَتْ فِي أَكْثَرَ مِنْ صُورَةٍ عَنْ شَهَادَةِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا لِنَبِيِّهِ بِالرِّسَالَةِ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ (آل عمران:١٤٤). وقالَ تَعَالَى: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾﴾ (النساء).

يَقُولُ الطَّبَرِيُّ مُعَلِّقًا عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ﴾: «إِنَّمَا جَعَلْنَاكَ – يَا مُحَمَّدُ – رَسُولًا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْخَلْقِ، تُبَلِّغُهُمْ مَا أَرْسَلْنَاكَ بِهِ مِنْ رِسَالَةٍ إِلَيْهِمْ، وَلَيْسَ عَلَيْكَ غَيْرَ الْبَلَاغِ وَأَدَاءِ الرِّسَالَةِ إِلَى مَنْ أُرْسِلْتَ إِلَيْهِ، فَإِنْ قَبِلُوا مَا أُرْسِلْتَ بِهِ فَلِأَنْفُسِهِمْ، وَإِنْ رَدُّوا فَعَلَيْهَا. ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ﴾ عَلَيْكَ وَعَلَيْهِمْ، ﴿شَهِيدًا﴾. يَقُولُ: حَسْبُكَ اللهُ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – شَاهِدًا عَلَيْكَ فِي بَلَاغِكَ مَا أُمِرْتَ بِبَلَاغِهِ مِنْ رِسَالَتِهِ وَوَحْيِهِ، وَعَلَى مَنْ أُرْسِلْتَ إِلَيْهِ فِي قَبُولِهِمْ مِنْكَ مَا أُرْسِلْتَ بِهِ إِلَيْهِمْ، فَإِنَّهُ لَا يَخْفَى

---

١) هذا الدليل وما بعده من أدلة مستفاد من كتاب "أسوة للعالمين" د/ راغب السرجاني ص (٢٢٥) وما بعدها.

عَلَيْهِ أَمْرُكَ وَأَمْرُهُمْ، وَهُوَ مُجَازِيكَ بِبَلَاغِكَ مَا وَعَدَكَ، وَمُجَازِيهِمْ مَا عَمِلُوا مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، جَزَاءَ الْمُحْسِنِ بِإِحْسَانِهِ، وَالْمُسِيءِ بِإِسَاءَتِهِ »(١).

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ ﴾ (النساء).

قال سيد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « هَذِهِ الشَّهَادَةُ مِنَ الله، ثُمَّ مِنْ مَلَائِكَتِهِ، وَمِنْهُمْ من حَمَلَهَا إِلَى رَسُولِهِ، إِسْقَاطٌ لِكُلِّ مَا يَقُولُهُ أَهْلُ الْكِتَابِ، فَمَنْ هُمْ، وَاللهُ يَشْهَدُ؟! وَالْمَلَائِكَةُ تَشْهَدُ ؟! وَشَهَادَةُ الله وَحْدَهَا فِيهَا الْكِفَايَةُ! وَفِي هَذِهِ الشَّهَادَةِ تَسْرِيَةٌ عَنِ الرَّسُولِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَا يَلْقَاهُ مِنْ كَيْدِ الْيَهُودِ وَعَنَتِهِمْ »(٢).

وَفِي تَحَدٍّ عَجِيبٍ يَقُولُ الْحَقُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِرِسَالَةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ﴾ (الرعد:٤٣).

قَالَ ابْنُ عَاشُورٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « إِنَّ اللهَ لَا يُصَدِّقُ مَنْ كَذَبَ عَلَيْهِ، فَلَا يَتِمُّ لَهُ أَمْرٌ، وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِ أَئِمَّةِ أُصُولِ الدِّينِ: إِنَّ دِلَالَةَ الْمُعْجِزَةِ عَلَى الصِّدْقِ أَنْ تَغْيِيرَ الله الْعَادَةَ لِأَجْلِ تَحَدِّي الرَّسُولِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَائِمٌ مَقَامَ قَوْلِهِ: صَدَقَ عَبْدِي فِيمَا أَخْبَرَ بِهِ عَنِّي »(٣).

---

١) جامع البيان في تأويل القرآن لابن جرير الطبري (٨/ ٥٦١).
٢) سيد قطب: في ظلال القرآن (٢/ ٢٩١).
٣) ابن عاشور: التحرير والتنوير (٢٥/ ٢١).

وَمَا أَجْمَلَ أَنْ نُذَكِّرَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ (الأنعام:١٩).

« أيُّ شاهدٍ في هذا الوجود كله هو أكبرُ شهادةً ؟ أيُّ شاهدٍ تعلو شهادتُه كلَّ شهادة ؟ أيُّ شاهدٍ تَحسِم شهادتُه في القضية فلا يبقى بعد شهادتِه شهادةٌ ؟... وكما يؤمَر رسولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالسؤالِ، فهو يؤمَر كذلك بالجواب، ذلك أنه لا جوابَ غيرُه باعتراف المخاطبَين أنفسِهم، ولا جوابَ غيرُه في حقيقة الأمر والواقع. ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ نعم! فالله سبحانه وتعالى هو أكبر شهادة، هو الذي يقصُّ الحق، وهو خير الفاصلين، هو الذي لا شهادة بعد شهادته، ولا قول بعد قوله، فإذا قال فقد انتهى القول ، وقد قُضِيَ الأمر »[1].

***

١) سيد قطب: في ظلال القرآن (٢/ ١٠٥٦). بتصرف.

الدَّلِيلُ الْخَامِسُ :
شَهَادَةُ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ فِي عَصْرِهِ.

لَقَدْ شَهِدَ بِصِدْقِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحْبَابُهُ، وَكَذَا أَعْدَاؤُهُ الَّذِينَ حَارَبُوهُ. فَزُعَمَاءُ الْكُفْرِ فِي مَكَّةَ وَمَنْ حَوْلَهَا مِنَ الْأَعْرَابِ كَانوا مُوقِنِينَ بِأَنَّ مُحَمَّدًا صَادِقٌ غَيْرُ كَاذِبٍ؛ لِأَنَّهُمْ عَايَشُوهُ أَرْبَعِينَ عَامًا قَبْلَ الرِّسَالَةِ، وَلَمْ يَعْهَدُوا عَلَيْهِ كَذِبًا، أَوْ خِيَانَةً، أَوْ سُوءًا فِي الْخُلُقِ أَوِ الْمُعَامَلَةِ، وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ. وَخَيْرُ شَاهِدٍ عَلَى ذَلِكَ :

• حَدِيثُ أَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ – الَّذِي كَانَ مُعَادِيًا لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ – مَعَ هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ.

فَقَدْ رَوَى عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ قَدْ أَخْبَرَهُ « أَنَّ هِرَقْلَ أَرْسَلَ إِلَيْهِ فِي رَكْبٍ مِنْ قُرَيْشٍ، وَكَانُوا تُجَّارًا بِالشَّامِ فِي الْمُدَّةِ[1] الَّتِي كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَادَّ فِيهَا أَبَا سُفْيَانَ وَكُفَّارَ قُرَيْشٍ، فَأَتَوْهُ وَهُمْ بِإِيلْيَاءَ، فَدَعَاهُمْ فِي مَجْلِسِهِ وَحَوْلَهُ عُظَمَاءُ الرُّومِ، ثُمَّ دَعَاهُمْ وَدَعَا بِتَرْجُمَانِهِ، فَقَالَ: أَيُّكُمْ أَقْرَبُ نَسَبا بِهَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ؟ فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: فَقُلْتُ: أَنَا أَقْرَبُهُمْ نَسَبا. فَقَالَ: أَدْنُوهُ مِنِّي، وَقَرِّبُوا أَصْحَابَهُ فَاجْعَلُوهُمْ عِنْدَ ظَهْرِهِ[2]. ثُمَّ قَالَ

---

١) المدة: يعني مدة الصلح بالحديبية، وكانت في سنة ست من الهجرة، وكانت مدتها عشر سنين. انظر: فتح الباري (١/ ٣٤)، والمنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج للنووي (١٢/ ١٠٣).
٢) فاجعلوهم عند ظهره: أي: لئلا يستحيوا أن يواجهوه بالتكذيب إن كذب.

لِتَرْجُمَانِهِ: قُلْ لَهُمْ: إِنِّي سَائِلٌ عَنْ هَذَا الرَّجُلِ، فَإِنْ كَذَبَنِي فَكَذِّبُوهُ. فَوَاللهِ! لَوْلَا الْحَيَاءُ مِنْ أَنْ يَأْثِرُوا عَلَيَّ كَذِبًا لَكَذَبْتُ عَنْهُ (١). ثُمَّ كَانَ أَوَّلَ مَا سَأَلَنِي عَنْهُ أَنْ قَالَ: كَيْفَ نَسَبُهُ فِيكُمْ؟ قُلْتُ: هُوَ فِينَا ذُو نَسَبٍ. قَالَ: فَهَلْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ مِنْكُمْ أَحَدٌ قَطُّ قَبْلَهُ؟ قُلْتُ: لَا. قَالَ: فَهَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ؟ قُلْتُ: لَا. قَالَ: فَأَشْرَافُ النَّاسِ يَتَّبِعُونَهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ؟ فَقُلْتُ: بَلْ ضُعَفَاؤُهُمْ. قَالَ: أَيَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ؟ قُلْتُ: بَلْ يَزِيدُونَ. قَالَ: فَهَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ؟ قُلْتُ: لَا . قَالَ: فَهَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ قُلْتُ: لَا. قَالَ : فَهَلْ يَغْدِرُ؟ قُلْتُ: لَا، وَنَحْنُ مِنْهُ فِي مُدَّةٍ لَا نَدْرِي مَا هُوَ فَاعِلٌ فِيهَا. قَالَ: وَلَمْ تُمَكِّنِّي كَلِمَةٌ أُدْخِلُ فِيهَا شَيْئًا غَيْرَ هَذِهِ الْكَلِمَةِ(٢). قَالَ: فَهَلْ قَاتَلْتُمُوهُ؟ قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: فَكَيْفَ كَانَ قِتَالُكُمْ إِيَّاهُ؟ قُلْتُ: الْحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ سِجَالٌ(٣) يَنَالُ مِنَّا وَنَنَالُ مِنْهُ. قَالَ: مَاذَا يَأْمُرُكُمْ؟ قُلْتُ: يَقُولُ: اعْبُدُوا اللهَ وَحْدَهُ، وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَاتْرُكُوا مَا يَقُولُ آبَاؤُكُمْ، وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلَاةِ وَالصِّدْقِ وَالْعَفَافِ وَالصِّلَةِ. فَقَالَ لِلتَّرْجُمَانِ: قُلْ لَهُ: سَأَلْتُكَ عَنْ نَسَبِهِ فَذَكَرْتَ أَنَّهُ فِيكُمْ ذُو نَسَبٍ، فَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْعَثُ فِي نَسَبٍ مِنْ قَوْمِهَا، وَسَأَلْتُكَ: هَلْ قَالَ أَحَدٌ مِنْكُمْ هَذَا الْقَوْلَ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا ، فَقُلْتُ: لَوْ كَانَ أَحَدٌ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ قَبْلَهُ لَقُلْتُ: رَجُلٌ يَتَأَسَّى بِقَوْلٍ قِيلَ قَبْلَهُ، وَسَأَلْتُكَ: هَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا، قُلْتُ: فَلَوْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلَكٍ قُلْتُ:

---

١) يأثروا عليَّ كذبا: ينقلوا عني الكذب.

٢) أي: أتنقَّص بها منه.

٣) سجال: أي: نوبة لنا ونوبة له. وأشار أبو سفيان بذلك إلى ما وقع بينهم في غزوة بدر وغزوة أحد.

رَجُلٌ يَطْلُبُ مُلْكَ أَبِيهِ. وَسَأَلْتُكَ: هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا؛ فَقَدْ أَعْرِفُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَذَرَ الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ وَيَكْذِبَ عَلَى اللهِ. وَسَأَلْتُكَ: أَشْرَافُ النَّاسِ اتَّبَعُوهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ؟ فَذَكَرْتَ أَنَّ ضُعَفَاءَهُمُ اتَّبَعُوهُ، وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ، وَسَأَلْتُكَ: أَيَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ؟ فَذَكَرْتَ أَنَّهُمْ يَزِيدُونَ، وَكَذَلِكَ أَمْرُ الْإِيمَانِ حَتَّى يَتِمَّ، وَسَأَلْتُكَ: أَيَرْتَدُّ أَحَدٌ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا، وَكَذَلِكَ الْإِيمَانُ حِينَ تُخَالِطُ بَشَاشَتُهُ الْقُلُوبَ(١)، وَسَأَلْتُكَ : هَلْ يَغْدِرُ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ لَا تَغْدِرُ، وَسَأَلْتُكَ: بِمَ يَأْمُرُكُمْ؟ فَذَكَرْتَ أَنَّهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَيَنْهَاكُمْ عَنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، وَيَأْمُرُكُمْ بِالصَّلَاةِ وَالصِّدْقِ وَالْعَفَافِ، فَإِنْ كَانَ مَا تَقُولُ حَقًّا فَسَيَمْلِكُ مَوْضِعَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ، وَقَدْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهُ خَارِجٌ لَمْ أَكُنْ أَظُنُّ أَنَّهُ مِنْكُمْ، فَلَوْ أَنِّي أَعْلَمُ أَنِّي أَخْلُصُ(٢) إِلَيْهِ لَتَجَشَّمْتُ(٣) لِقَاءَهُ، وَلَوْ كُنْتُ عِنْدَهُ لَغَسَلْتُ عَنْ قَدَمِهِ(٤)..»(٥).

وَفِي هَذَا دَلِيلٌ وَاضِحٌ عَلَى صِدْقِ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَكُلُّ مَا أَخْبَرَ بِهِ أَبُو سُفْيَانَ وَاقِعٌ قَدْ رَآهُ بِعَيْنِهِ، وَعَايَشَهُ بِعَقْلِهِ وَجَوَارِحِهِ.

---

١) تخالط بشاشته القلوب: يعني انشراح الصدور.

٢) أخلص أي: أصل، يقال: خلص إلى كذا أي وصل.

٣) لتجشمت أي: تكلفت الوصول إليه، ولكني أخاف أن أقتطع دونه.

٤) لغسلت عن قدميه: مبالغة في الخدمة له. وفي اقتصاره على ذكر غسل القدمين إشارة منه إلى أنه لا يطلب إلا ما تحصل له به البركة. انظر: فتح الباري (١/ ٣٧).

٥) متفق عليه: رواه البخاري برقم (٧)، ومسلم برقم (١٧٧٣).

• وَلْنَأْتِ بِشَهَادَةٍ آخَرَ مِنْ أَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ وَهُوَ (أَبُو جَهْلٍ) الَّذِي بَلَغَتْ عَدَاوَتُهُ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذِّرْوَةَ؛ فَهُوَ الَّذِي أَصَرَّ عَلَى إِشْعَالِ نِيرَانِ الْحَرْبِ بَيْنَ الْكَافِرِينَ وَالْمُسْلِمِينَ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ، وَجَرَّهُ كِبْرُهُ وَجَبَرُوتُهُ لِحَتْفِهِ وَمَصْرَعِهِ، لَقَدْ شَهِدَ هَذَا الْعَدُوُّ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالصِّدْقِ وَالنُّبُوَّةِ.

وَقَالَ: الْأَخْنَسُ بْنُ شُرَيْقٍ لِأَبِي جَهْلٍ يَوْمَ بدرٍ: « يَا أَبَا الْحَكَمِ، أَخْبِرْنِي عَنْ مُحَمَّدٍ؛ أَصَادِقٌ هُوَ أَمْ كَاذِبٌ؟ فَإِنَّهُ لَيْسَ هَاهُنَا مِنْ قُرَيْشٍ أَحَدٌ غَيْرِي وَغَيْرُكَ يَسْمَعُ كَلَامَنَا. فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ: وَيْحَكَ! وَاللهِ إِنَّ مُحَمَّدا لَصَادِقٌ، وَمَا كَذَبَ مُحَمَّدٌ قَطُّ، وَلَكِنْ إِذَا ذَهَبَتْ بَنُو قُصَيٍّ بِاللِّوَاءِ وَالْحِجابَةِ وَالسِّقَايَةِ وَالنُّبُوَّةِ، فَمَاذَا يَكُونُ لِسَائِرِ قُرَيْشٍ؟ »[1].

• بَلْ قَدِ اعْتَرَفَتْ قُرَيْشٌ بِسَائِرِ بُطُونِهَا بِأَنَّهُ صَادِقٌ أَمِينٌ، وَهُوَ أَمْرٌ لا يَسْتَقِيمُ لِأَيِّ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ أَنْ تَجْتَمِعَ الْقَبِيلَةُ بِكَامِلِهَا عَلَى صِدْقِهِ وَأَمَانَتِهِ، رَغْمَ الِاخْتِلَافَاتِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ بَيْنَ أَفْرَادِهَا الْكَثِيرِينَ.

فَفِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ خَرَجَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى صَعِدَ الصَّفَا، فَهَتَفَ: **{يَا صَبَاحَاهْ}**، فَقَالُوا: مَنْ هَذَا الَّذِي يَهْتِفُ؟ قَالُوا: مُحَمَّدٌ، فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ، فَقَالَ: **{يَا بَنِي فُلَانٍ، يَا بَنِي فُلَانٍ، يَا بَنِي فُلَانٍ، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ}** ، فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ، فَقَالَ: **{أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا تَخْرُجُ بِسَفْحِ هَذَا الْجَبَلِ،**

---

١) جامع البيان للطبري (١١/ ٣٣٣)، وانظر: دلائل النبوة للبيهقي (٢/ ٢٠٦)، والسيرة النبوية لابن كثير (١/ ٥٠٦).

أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟} قَالُوا: مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا، قَالَ: {فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ} ، قَالَ: فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ: تَبًّا لَكَ أَمَا جَمَعْتَنَا إِلَّا لِهَذَا، ثُمَّ قَامَ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ السُّورَةُ ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ ﴾ (المسد)(١).

إِنَّ قُرَيْشًا كُلَّهَا قَدِ اعْتَرَفَتْ بِصِدْقِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمَّا أَخْبَرَهُمْ بِحَقِيقَةِ دَعْوَتِهِ وَرِسَالَتِهِ قَلَّدُوا آبَاءَهُمْ فَرَفَضُوا دَعْوَتَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

• كَمَا اعْتَرَفَ زُعَمَاءُ الْيَهُودِ بِصِدْقِ نُبُوَّتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهَذَا مَا تَقُصُّهُ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيِّ بْنِ أَخْطَبَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَعِيمِ يَهُودِ بَنِي قُرَيْظَةَ فَتَقُولُ: « لَمْ يَكُنْ مِنْ وَلَدِ أَبِي وَعَمِّي أَحَدٌ أَحَبُّ إِلَيْهِمَا مِنِّي، لَمْ أَلْقَهُمَا قَطُّ مَعَ وَلَدٍ لَهُمَا أَهَشُّ إِلَيْهِمَا إِلَّا أَخَذَانِي دُونَهُ، فَلَمَّا قَدِمَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُبَاءَ نَزَلَ قَرْيَةَ بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ، غَدَا إِلَيْهِ أَبِي وَعَمِّي أَبُو يَاسِرِ بْنُ أَخْطَبَ، مغلِّسين(٢)، فو الله مَا جَاءَانَا إِلَّا مَعَ مَغِيبِ الشَّمْسِ، فَجَاءَانَا فَاتِرَيْنِ كَسْلَانَيْنِ سَاقِطَيْنِ، يَمْشِيَانِ الْهُوَيْنَى، فَهَشَشْتُ إِلَيْهِمَا كَمَا كُنْتُ أصنع، فو الله مَا نَظَرَ إِلَيَّ وَاحِدٌ مِنْهُمَا، فَسَمِعْتُ عَمِّيَ أَبَا يَاسِرٍ، يَقُولُ لِأَبِي: أَهُوَ هُوَ ؟، قَالَ: نَعَمْ، وَالله. قَالَ:تَعْرِفُهُ بِعَيْنِهِ وَصِفَتِهِ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، وَالله، قَالَ: فَمَاذَا فِي نَفْسِكَ مِنْهُ ؟ قَالَ:عَدَاوَتُهُ وَالله مَا بَقِيتُ »(٣).

• وَمَا أَجْمَلَ أَنْ نَخْتِمَ مَبْحَثَنَا هَذَا بِاعْتِرَافِ نَصَارَى نَجْرَانَ بِنُبُوَّتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

---

١) متفق عليه: رواه البخاري برقم (٤٧٧٠)، ومسلم برقم (٢٠٨) ، و اللفظ له.
٢) الغَلَس: ظلام آخر الليل قربَ الصباح.
٣) دلائل النبوة للبيهقي (٢/ ٥٣٣)، والسيرة النبوية لابن كثير (٢/ ٢٩٨).

عِنْدَمَا رَفَضُوا مُبَاهَلَةَ(١) رَسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي امْتَثَلَ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمۡ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمۡ ثُمَّ نَبۡتَهِلۡ فَنَجۡعَل لَّعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰذِبِينَ ٦١﴾ (آل عمران) فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَعَهُ عَلِيٌّ وَالْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ وَفِاطِمَةُ، وَدَعَاهُمْ لِلْمُبَاهَلَةِ فَقَالُوا: « يَا أَبَا الْقَاسِمِ، دَعْنَا نَنْظُرْ فِي أَمْرِنَا، ثُمَّ نَأْتِيكَ بِمَا نُرِيدُ أَنْ نَفْعَلَ فِيمَا دَعَوْتَنَا إِلَيْهِ. فَانْصَرَفُوا عَنْهُ، ثُمَّ خَلَوْا بِالْعَاقِبِ، وَكَانَ ذَا رَأْيِهِمْ، فَقَالُوا: يَا عَبْدَ الْمَسِيحِ، مَاذَا تَرَى؟ فَقَالَ: وَاَللهِ يَا مَعْشَرَ النَّصَارَى لَقَدْ عَرَفْتُمْ أَنَّ مُحَمَّدًا لَنَبِيٌّ مُرْسَلٌ، وَلَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْفَصْلِ مِنْ خَبَرِ صَاحِبِكُمْ(٢)، وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لَاعَنَ قَوْمٌ نَبِيًّا قَطُّ فَبَقِيَ كَبِيرُهُمْ، وَلَا نَبَتَ صَغِيرُهُمْ، وَإِنَّهُ لَلِاسْتِئْصَالُ مِنْكُمْ إِنْ فَعَلْتُمْ، فَإِنْ كُنْتُمْ قَدْ أَبَيْتُمْ إِلَّا إِلْفَ دِينِكُمْ، وَالْإِقَامَةَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْقَوْلِ فِي صَاحِبِكُمْ، فَوَادِعُوا الرَّجُلَ، ثُمَّ انْصَرِفُوا إِلَى بِلَادِكُمْ. فَأَتَوْا رَسُولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالُوا: يَا أَبَا الْقَاسِمِ، قَدْ رَأَيْنَا أَلَّا نُلَاعِنَكَ، وَأَنْ نَتْرُكَكَ عَلَى دِينِكَ وَنَرْجِعَ عَلَى دِينِنَا، وَلَكِنْ ابْعَثْ مَعَنَا رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِكَ تَرْضَاهُ لَنَا، يَحْكُمْ بَيْنَنَا فِي أَشْيَاءَ اخْتَلَفْنَا فِيهَا مِنْ أَمْوَالِنَا، فَإِنَّكُمْ عِنْدَنَا رِضًا »(٣).

---

١) المباهلة: الملاعنة، يقال: باهلت فلانًا أي لاعنته. وذلك بأن يجتمع القوم إذا اختلفوا في شيء فيقولوا: لعنة الله على الكاذب منَّا. انظر: لسان العرب (١١/ ٧١).

٢) يقصد المسيح عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

٣) السِّيرة النبوية لابن هشام (١/ ٥٨٤)، و"عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسِّيَر" لابن سيد الناس (١/ ٢٥٣).

الدَّلِيلُ السَّادِسُ:

شَهَادَةُ الْمُنْصِفِينَ مِنَ الْغَرْبِيِّينَ

يَقُولُ الشَّاعِرُ الْفَرَنْسِيُّ (لَامَارْتِين): « أَتَرَوْنَ أَنَّ مُحَمَّدًا كَانَ صَاحِبَ خِدَاعٍ وَتَدْلِيسٍ، وَصَاحِبَ بَاطِلٍ وَكَذِبٍ؟! كَلَّا، بَعْدَمَا وَعَيْنَا تَارِيخَهُ، وَدَرَسْنَا حَيَاتَهُ، فَإِنَّ الْخِدَاعَ وَالتَّدْلِيسَ وَالْبَاطِلَ وَالْإِفْكَ.. كُلُّ تِلْكَ الصِّفَاتِ هِيَ أَلْصَقُ بِمَنْ وَصَفَ مُحَمَّدًا بِهَا »(١).

وَيَقُولُ (تُومَاس كَارليل): « لَسْنَا نَعُدُّ مُحَمَّدًا قَطُّ رَجُلًا كَاذِبًا مُتَصَنِّعا، يَتَذَرَّعُ بِالْحِيَلِ وَالْوَسَائِلِ إِلَى بُغْيَةٍ، أَوْ يَطْمَعُ إِلَى دَرَجَةِ مُلْكٍ، أَوْ سُلْطَانٍ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْحَقَائِرِ وَالصَّغَائِرِ، وَمَا الرِّسَالَةُ الَّتِي أَدَّاهَا إِلَّا حَقٌّ صُرَاحٌ، وَمَا كَلِمَتُهُ إِلَّا صَوْتٌ صَادِقٌ صَادِرٌ مِنَ الْعَالَمِ الْمَجْهُولِ، كَلَّا، مَا مُحَمَّدٌ بِالْكَاذِبِ وَلَا الْمُلَفِّقِ، وَإِنَّمَا هُوَ قِطْعَةٌ مِنَ الْحَيَاةِ قَدْ تَفَطَّرَ عَنْهَا قَلْبُ الطَّبِيعَةِ، فَإِذَا هِيَ شِهَابٌ قَدْ أَضَاءَ الْعَالَمَ أَجْمَعَ »(٢).

وَيَقُولُ عَالِمُ الِاجْتِمَاعِ (جُوسْتَافُ لُوبُون): « إِنَّنِي لَا أَدْعُو إِلَى بِدْعَةٍ مُحْدَثَةٍ، وَلَا إِلَى ضَلَالَةٍ مُسْتَهْجَنَةٍ، بَلْ إِلَى دِينٍ عَرَبِيٍّ قَدْ أَوْحَاهُ اللهُ إِلَى نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ، فَكَانَ أَمِينًا عَلَى بَثِّ دَعْوَتِهِ بَيْنَ قَبَائِلَ تَلَهَّتْ بِعِبَادَةِ الْأَحْجَارِ وَالْأَصْنَامِ، وتَلَذَّذَتْ بِتُرَّهَاتِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَجَمَعَ صُفُوفَهُمْ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ مُبَعْثَرَةً، وَوَحَّدَ كَلِمَتَهُمْ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ مُتَفَرِّقَةً، وَوَجَّهَ أَنْظَارَهُمْ لِعِبَادَةِ الْخَالِقِ، فَكَانَ خَيْرَ الْبَرِيَّةِ عَلَى الْإِطْلَاقِ حُبًّا وَنَسَبًا

---

١) "السفر إلى الشرق" لامارتين : ص (٨٤).

٢) "الأبطال" توماس كارليل: ص (٥٨- ٦٠).

وَزَعَامَةً وَنُبُوَّةً ».

وَيَقُولُ (لُوبُون) فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: « فَرَسُولٌ كَهَذَا جَدِيرٌ بِاتِّبَاعِ رِسَالَتِهِ، والْمُبَادَرَةِ إِلَى اعْتِنَاقِ دَعْوَتِهِ، إِذْ إِنَّهَا دَعْوَةٌ شَرِيفَةٌ، قَوَامُهَا مَعْرِفَةُ الْخَالِقِ، وَالْحَضُّ عَلَى الْخَيْرِ، وَالرَّدْعُ عَنِ الْمُنْكَرِ، بَلْ كُلُّ مَا جَاءَ فِيهَا يَرْمِي إِلَى الصَّلَاحِ وَالْإِصْلَاحِ، وَالصَّلَاحُ أُنْشُودَةُ الْمُؤْمِنِ، وَهُوَ الَّذِي أَدْعُو إِلَيْهِ جَمِيعَ النَّصَارَى »(١).

وَلَا يُخْفِي الْمُفَكِّرُ الْبِرِيطَانِيُّ (لين بول) تَأَثُّرَهُ بِالنبيِّ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فَيَقُولُ:

« إِنَّ مُحَمَّدًا صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كَانَ يَتَّصِفُ بِكَثِيرٍ مِنَ الصِّفَاتِ؛ كَاللُّطْفِ وَالشَّجَاعَةِ وَكَرَمِ الْأَخْلَاقِ، حَتَّى إِنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَحْكُمَ عَلَيْهِ دُونَ أَنْ يَتَأَثَّرَ بِمَا تَطْبَعُهُ هَذِهِ الصِّفَاتُ فِي نَفْسِهِ، وَدُونَ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْحُكْمُ صَادِرًا عَنْ غَيْرِ مَيْلٍ أَوْ هَوًى، كَيْفَ لَا ؟! وَقَدِ احْتَمَلَ مُحَمَّدٌ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عَدَاءَ أَهْلِهِ وَعَشِيرَتِهِ سَنَوَاتٍ بِصَبْرٍ وَجَلَدٍ عَظِيمَيْنِ، وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ بَلَغَ مِنْ نُبْلِهِ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَسْحَبُ يَدَهُ مِنْ يَدِ مُصَافِحِهِ حَتَّى لَوْ كَانَ يُصَافِحُ طِفْلًا ! وَأَنَّهُ لَمْ يَمُرَّ بِجَمَاعَةٍ يَوْمًا فِي الْأَيَّامِ – رِجَالًا كَانُوا أَمْ أَطْفَالًا – دُونَ أَنْ يُسَلِّمَ عَلَيْهِمْ، وَعَلَى شَفَتَيْهِ ابْتِسَامَةٌ حُلْوَةٌ، وَبِنَغَمَةٍ جَمِيلَةٍ كَانَتْ تَكْفِي وَحْدَهَا لِتَسْحَرَ سَامِعِيهَا، وَتَجْذِبَ الْقُلُوبَ إِلَى صَاحِبِهَا جَذْبًا! »(٢).

وَيَتَحَدَّثُ الْأَدِيبُ الْإِنْجِلِيزِيُّ (جورج برناردشو) قَائِلًا: « لَقَدْ دَرَسْتُ مُحَمَّدًا بِاعْتِبَارِهِ، رَجُلًا مُدْهِشًا، فَرَأَيْتُهُ بَعِيدًا عَنْ مُخَاصَمَةِ الْمَسِيحِ، بَلْ يَجِبُ أَنْ يُدْعَى مُنْقِذَ

---

١) "حضارة العرب" – غوستاف لوبون: ص (٦٧).

٢) لين بول: رسالة في تاريخ العرب، نقلًا عن: روح الدين الإسلامي عفيف عبد الفتاح طبارة: ص (٤٣٨).

الْإِنْسَانِيَّةِ، وَأُورُبَّا فِي الْعَصْرِ الرَّاهِنِ بَدَأَتْ تَعْشَقُ عَقِيدَةَ التَّوْحِيدِ، وَرُبَّمَا ذَهبَتْ إِلَى أَبْعَدَ مِنْ ذَلِكَ؛ فَتَعْرِفُ بِقُدْرَةِ هَذِهِ الْعَقِيدَةِ عَلَى حَلِّ مُشْكِلَاتِهَا، فَبِهَذِهِ الرُّوحِ يَجِبُ أَنْ تَفْهَمُوا نُبُوءَتِي »(١).

وَيَقُولُ الْمُسْتَشْرِقُ الْإِنْجِلِيزِيُّ (وِليم موير): « امْتَازَ مُحَمَّدٌ بِوُضُوحِ كَلَامِهِ، وَيُسْرِ دِينِهِ، وَأَنَّهُ أَتَمَّ مِنَ الْأَعْمَالِ مَا أَدْهَشَ الْأَلْبَابَ، لَمْ يَشْهَدِ التَّارِيخُ مُصْلِحا أَيْقَظَ النُّفُوسَ، وَأَحْيَا الْأَخْلَاقَ الْحَسَنَةَ، وَرَفَعَ شَأْنَ الْفَضِيلَةَ فِي زَمَنٍ قَصِيرٍ كَمَا فَعَلَ مُحَمَّدٌ »(٢).

ويقول في موضع آخر: « وَمَهْمَا يَكُنْ هُنَاكَ مِنْ أَمْرٍ فَإِنَّ مُحَمَّدًا أَسْمَى مِنْ أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَيْهِ الْوَاصِفُ، وَخَبِيرٌ بِهِ مَنْ أَمْعَنَ النَّظَرَ فِي تَارِيخِهِ الْمَجِيدِ، وَذَلِكَ التَّارِيخُ الَّذِي تَرَكَ مُحَمَّدًا فِي طَلِيعَةِ الرُّسُلِ وَمُفَكِّرِي الْعَالَمِ »(٣).

وَيَقُولُ الْمُسْتَشْرِقُ الْأَمْرِيكِيُّ (واشنجتون إرفنج): « كَانَتْ تَصَرُّفَاتُ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أَعْقَابِ فَتْحِ مَكَّةَ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ، لَا عَلَى أَنَّهُ قَائِدٌ مُظَفَّرٌ؛ فَقَدْ أَبْدَى رَحْمَةً وَشَفَقَةً عَلَى مُوَاطِنِيهِ، بِرَغْمِ أَنَّهُ أَصْبَحَ فِي مَرْكَزِ قُوىٍّ، وَلَكِنَّهُ تَوَّجَ نَجَاحَهُ وَانْتِصَارَهُ بِالرَّحْمَةِ وَالْعَفْوِ »(٤).

---

١) "الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في عيون غربية منصفة" – حسين حسيني معدي: ص (٧٠).
٢) حياة محمد – وليم موير: ص (٣١).
٣) المصدر السابق: ص (٢٠).
٤) حياة محمد واشنجتون إيرفنج: ص (٧٢).

وَيَقُولُ رَئِيسُ الْوُزَرَاءِ الْهِنْدِيُّ الْأَسْبَقُ (جواهر لال نهرو): « كَانَ مُحَمَّدٌ كَمُؤَسِّسِي الْأَدْيَانِ الْأُخْرَى نَاقِمًا عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الْعَادَاتِ وَالتَّقَالِيدِ الَّتِي كَانَتْ سَائِدَةً فِي عَصْرِهِ، وَكَانَ لِلدِّينِ الَّذِي بَشَّرَ بِهِ - بِمَا فِيهِ مِنْ سُهُولَةٍ وَصَرَاحَةٍ وَإِخَاءٍ وَمُسَاوَاةٍ - تَجَاوُبٌ لَدَى النَّاسِ فِي الْبُلْدَانِ الْمُجَاوِرَةِ؛ لِأَنَّهُمْ ذَاقُوا الظُّلْمَ عَلَى يَدِ الْمُلُوكِ الْمُسْتَبِدِّينَ، لَقَدْ تَعِبَ النَّاسُ مِنَ النِّظَامِ الْقَدِيمِ، وَتَاقُوا إِلَى نِظَامٍ جَدِيدٍ، فَكَانَ الْإِسْلَامُ فُرْصَتَهُمُ الذَّهَبِيَّةَ؛ لِأَنَّهُ أَصْلَحَ الْكَثِيرَ مِنْ أَحْوَالِهِمْ، وَرَفَعَ عَنْهُمْ كَابُوسَ الضَّيْمِ وَالظُّلْمِ »(١).

وَيَقُولُ الْمُؤَرِّخُ الْبِلْجِيكِيُّ (جورج سارتون): « وَخُلَاصَةُ الْقَوْلِ أَنَّهُ لَمْ يُتَحْ لِنَبِيٍّ مِنْ قَبْلُ وَلَا مِنْ بَعْدُ أَنْ يَنْتَصِرَ انْتِصَارًا تَامًّا كَانْتِصَارِ مُحَمَّدٍ »(٢).

يَقُولُ (ليو تولستوي): « سَوْفَ تَسُودُ شَرِيعَةُ الْقُرآنِ الْعَالَمَ لِتَوَافُقِهَا وَانْسِجَامِهَا مَعَ الْعَقْلِ وَالْحِكْمَةِ. لَقَدْ فَهِمْتُ.... لَقَدْ أَدْرَكْتُ.... كُلُّ مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْبَشَرِيَّةُ هُوَ شَرِيعَةٌ سَمَاوِيَّةٌ تُحِقُّ الْحَقَّ، وَتُزْهِقَ الْبَاطِلَ. أَنَا وَاحِدٌ مِنَ الْمُبْهُورِينَ بِالنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ الَّذِي اخْتَارَهُ اللهُ الْوَاحِدُ لِتَكُونَ آخِرَ الرِّسَالَاتِ عَلَى يَدَيْهِ، وَلِيَكُونَ هُوَ أَيْضًا آخِرَ الْأَنْبِيَاءِ »(٣).

وَيَقُولُ الدُّكْتُورُ (إيرنبرج) أُسْتَاذٌ فِي جَامِعَةِ أُوسْلُو: « لَاشَكَّ فِي أَنَّ الْقُرْآنَ مِنَ

---

١) لمحات من تاريخ العالم - جواهر لال نهرو: ص (٢٧).

٢) الثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط - سارتون: ص (٢٨- ٣٠).

٣) انظر هذا القول وما بعده من أقوال بكتاب: الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في "عيون غربية منصفة" - حسين حسيني معدي ، ص (٦٧- ٧٠).

اللهِ، وَلَاشَكَّ فِي ثُبُوتِ رِسَالَةِ مُحَمَّدٍ ».

وَيَقُولُ غُوته: « وَبَحَثْتُ فِي التَّارِيخِ عَنْ مَثَلٍ أَعْلَى لِهَذَا الْإِنْسَانِ، فَوَجَدْتُهُ فِي النَّبِيِّ الْعَرَبِيِّ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِنَّ التَّشْرِيعَ فِي الْغَرْبِ نَاقِصٌ بِالنِّسْبَةِ لِلتَّعَالِيمِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَإِنَّنَا أَهْلَ أُورُبَّا بِجَمِيعِ مَفَاهِيمِنَا لَمْ نَصِلْ بَعْدُ إِلَى مَا وَصَلَ إِلَيْهِ مُحَمَّدٌ، وَسَوْفَ لَا يَتَقَدَّمُ عَلَيْهِ أَحَدٌ ».

وَيَقُولُ عَالِمُ اللَّاهُوتِ السِّوِيسْرِيُّ (د.هانز كونج): « مُحَمَّدٌ نَبِيٌّ حَقِيقِيٌّ بِمَعْنَى الْكَلِمَةِ، وَلَا يُمْكِنُنَا بَعْدُ إِنْكَارُ أَنَّ مُحَمَّدًا هُوَ الْمُرْشِدُ الْقَائِدُ إِلَى طَرِيقِ النَّجَاةِ ».

وَيَقُولُ (جورج برنارد شو): « قَرَأْتُ حَيَاةَ رَسُولِ الْإِسْلَامِ جَيِّدًا مَرَّاتٍ وَمَرَّاتٍ، فَلَمْ أَجِدْ فِيهَا إِلَّا الْخُلُقَ كَمَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ، وَكَمْ تَمَنَّيْتُ أَنْ يَكُونَ الْإِسْلَامُ هُوَ سَبِيلُ الْعَالَمِ ».

وَيَقُولُ (توماس كاريل): « إِنَّمَا مُحَمَّدٌ شِهَابٌ قَدْ أَضَاءَ الْعَالَمَ، ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ».

***

الدَّلِيلُ السَّابِعُ :

شَهَــادَةُ الْوَاقِــعِ.

يَشْهَدُ الْوَاقِعُ قَدِيمًا وَحَدِيثًا أَنَّ الدِّينَ الْإِسْلَامِيَّ الذي بُعِثَ بِهِ النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَسْرَعُ الدِّيَانَاتِ نُمُوًّا فِي الْعَالَمِ.

وَالتَّارِيخُ يَشْهَدُ شَهَادَةَ صِدْقٍ عَلَى انْتِشَارِ هَذَا الدِّينِ، وَإِيمَانِ شُعُوبِ الْأَرْضِ الْمُخْتَلِفَةِ بِهِ، سَوَاءٌ كَانَتْ مَهْزُومَةً أَوْ مُنْتَصِرَةً فِي مَعَارِكِهَا مَعَ مُعْتَنِقِيهِ، وَهَذَا مِنْ أَعْجَبِ الْمَوَاقِفِ الَّتِي حَيَّرَتِ الْعُلَمَاءَ وَالْمُفَكِّرِينَ، وَمَا إِسْلَامُ التَّتَارِ عَنَّا بِبَعِيدٍ! ذَلِكَ الشَّعْبُ الَّذِي دَخَلَ بِلَادَ الْمُسْلِمِينَ مُبِيدًا لِأَهْلِهَا، وَلَكِنَّ هَزِيمَتَهُ فِي مَعْرَكَةِ عَيْنِ جَالُوتَ عام (٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م) جَعَلَتْهُ يُفَكِّرُ فِي طَبِيعَةِ هَذَا الدِّينِ، وَيُدْرِكُهَا عَنْ قُرْبٍ، فَآمَنَ أَغْلَبُهُمْ، وَتَحَوَّلُوا إِلَى مُدَافِعِينَ عَنِ الْإِسْلَامِ، حَامِينَ لِعَرِينِهِ مِنَ الْمُعْتَدِينَ.

فَدَاعِيَةُ الْإِسْلَامِ الْأَكْبَرُ هُوَ الْإِسْلَامُ نَفْسُهُ، حَيْثُ تَضَمَّنَتْ عَقِيدَتُهُ وَشَرِيعَتُهُ مِنَ الْفَضَائِلِ مَا يَجْعَلُ النَّاسَ يَحْرِصُونَ أَشَدَّ الْحِرْصِ عَلَى أَنْ يَدْخُلُوا فِيهِ.

وَإِنَّكَ لَتَتَعَجَّبُ عِنْدَمَا تَنْظُرُ إِلَى عَالَمِ الْيَوْمِ، وَتَتَأَمَّلُ مَدَى انْتِشَارِ الْإِسْلَامِ، وَيَزْدَادُ عَجَبُكَ عِنْدَمَا تَتَبَيَّنَ أَنَّ الْإِسْلَامَ قَدْ مَلَأَ قُلُوبَ مُعْتَنِقِيهِ دُونَ جَيْشٍ مُنَظَّمٍ، أَوْ سِيَاسَةٍ مَرْسُومَةٍ لِذَلِكَ، إِنَّمَا هُوَ الْإِسْلَامُ نَفْسُهُ، جَعَلَهُ اللهُ خَفِيفًا عَلَى الْقُلُوبِ، قَرِيبًا إِلَى النُّفُوسِ، مَا تَكَادُ كَلِمَةُ الْحَقِّ تُصَافِحُ أُذُنَ الرَّجُلِ حَتَّى يَصِلَ الْإِيمَانُ إِلَى قَلْبِهِ، فَإِذَا اسْتَقَرَّ فِي قَلْبِهِ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ قَطُّ سَبِيلٌ إِلَى إِخْرَاجِهِ مِنْهُ (١).

---

١) الإسلام الفاتح - حسين مؤنس: ص (٢٠- ٢٤) بتصرف.

وَلَعَلَّ أَكْبَرَ أَسْبَابِ خِفَّةِ الْإِسْلَامِ عَلَى الْقُلُوبِ هُوَ وُضُوحُهُ وَصِدْقُهُ؛ لِذَلِكَ انْبَهَرَ عُلَمَاءُ الْغَرْبِ بِطَبِيعَتِهِ، حَتَّى إِنَّ الْمُؤَرِّخَ وَالْفَيْلَسُوفَ الِاجْتِمَاعِيَّ الْفَرَنْسِيَّ الشَّهِيرَ (جُوستَافُ لُوبُون) يَقُولُ عَنْ يُسْرِ الْإِسْلَامِ: « وَلَا شَيْءَ أَكْثَرَ وُضُوحًا، وَأَقَلَّ غُمُوضًا مِنْ أُصُولِ الْإِسْلَامِ الْقَائِلَةِ بِوُجُودِ إِلَهٍ وَاحِدٍ، وَبِمُسَاوَاةِ جَمِيعِ النَّاسِ أَمَامَ الله، وَبِبِضْعَةِ فُرُوضٍ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ يَقُومُ بِهَا، وَيَدْخُلُ النَّارَ مَنْ يُعْرِضُ عَنْهَا، وَإِنَّكَ إِذَا مَا اجْتَمَعْتَ بِأَيِّ مُسْلِمٍ مِنْ أَيَّةِ طَبَقَةٍ رَأَيْتَهُ يَعْرِفُ مَا يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَعْتَقِدَهُ، وَيَسْرُدُ لَكَ أُصُولَ الْإِسْلَامِ فِي بِضْعِ كَلِمَاتٍ بِسُهُولَةٍ، وَهُوَ بِذَلِكَ عَلَى عَكْسِ النَّصْرَانِيِّ الَّذِي لَا يَسْتَطِيعُ حَدِيثًا عَنِ التَّثْلِيثِ وَالِاسْتِحَالَةِ، وَمَا مَاثَلَهُمَا مِنَ الْغَوَامِضِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ مِنْ عُلَمَاءِ اللَّاهُوتِ الْوَاقِفِينَ عَلَى دَقَائِقِ الْجَدَلِ، وَسَاعَدَ وُضُوحُ الْإِسْلَامِ الْبَالِغُ ما أمَرَ بِهِ منَ العَدْلِ والإحْسانِ، كلَّ المساعَدَةِ عَلَى انتِشارِهِ في العالَمِ »[١].

وَلْنَنْظُرْ إِلَى عَالِمِ الْيَوْمِ حَيْثُ نَجِدُ أَكْثَرَ مِنْ (٤٢٠٠) دِيَانة فِي الْعَالَمِ[٢]! وَلَكِنَّ الْإِحْصَائِيَّاتِ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الدِّينَ الْإِسْلَامِيَّ هُوَ الْأَسْرَعُ انْتِشَارا بَيْنَ جَمِيعِ تِلْكَ الْأَدْيَانِ، فَفِي عَامِ (١٩٠٠م) بَلَغَتْ نِسْبَةُ الْمُسْلِمِينَ فِي الْعَالَمِ (١٢.٤٪)، أَمَّا الْمَسِيحِيَّةُ فَقَدْ بَلَغَتْ نِسْبَتُهَا (٢٦.٩٪)، وَفِي عَامِ (١٩٨٠م) بَلَغَتْ نِسْبَةُ الْمُسْلِمِينَ فِي الْعَالَمِ (١٦.٥٪)، أَمَّا الْمَسِيحِيَّةُ فَقَدْ بَلَغَتْ نِسْبَتُهَا (٢٩.٩٪)[٣]. وَقَدْ أَقَرَّتْ

---

١) حضارة العرب جوستاف لوبون: ص (١٢٥).

٢) موقع www.adherents.com.

٣) ٢٠٠٤ sato Tsugitaka, Muslim Societies, routledge, UK.

بِذَلِكَ الْمَوْسُوعَةُ الْمَسِيحِيَّةُ الْعَالَمِيَّةُ طِبْقًا لِأَحْدَثِ طَبْعَةٍ لَهَا، حَيْثُ لَاحَظَتِ ارْتِفَاعَ عَدَدِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ مَجْمُوعِ سُكَّانِ الْعَالَمِ بِنِسْبَةٍ تَقْرُبُ مِنْ (٧٪) خِلَالَ الْقَرْنِ الْمَاضِي، بَيْنَمَا تَرَاجَعَتْ نِسْبَةُ الْمَسِيحِيِّينَ.

وَأَكَّدَتِ الْمَوْسُوعَةُ ذَاتُهَا أَيْضا أَنَّ نِسْبَةَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ مَجْمُوعِ سُكَّانِ الْعَالَمِ ارْتَفَعَتْ إِلَى (١٩.٦٪)، أَيْ مَا يُقَارِبُ (١.٣) مِلْيَار مسلم (١).

أما توقعات المراقبين في عام (٢٠٢٥م) بأنه سوف تبلغ نسبة المسلمين في العالم (٣٠٪)، أما المسيحية فستكون نسبتها (٢٥٪)، فبالوقوف عَلَى هَذِهِ النَّتَائِجِ نَسْتَنْتِجُ أَنَّ الْإِسْلَامَ يَنْمُو كُلَّ سَنَةٍ بِنِسْبَةِ (٢.٩٪)، وَهَذِهِ أَعْلَى نِسْبَةٍ لِلنُّمُوِّ فِي الْعَالَمِ(٢).

وَإِذَا أَمْعَنَّا النَّظَرَ أَكْثَرَ فِي بَعْضِ الْبِلَادِ الْغَرْبِيَّةِ، مِثْلِ فَرَنْسَا وَأَلْمَانْيَا وَبِرِيطَانْيَا وَأَمِرِيكَا وَغَيْرِهَا، سَنَتَأَكَّدُ مِنْ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْإِسْلَامَ دِينُ الْفِطْرَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ الَّتِي مَا إِنْ يَعْرِفُ حَقِيقَتَهُ أَيُّ إِنْسَانٍ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ إِلَّا اعْتَنَقَهُ عَنِ اقْتِنَاعٍ وَحُبٍّ؛ فَقَدْ كَشَفَتْ دِرَاسَةٌ أَعَدَّتْهَا وَزَارَةُ الدَّاخِلِيَّةِ الْفَرَنْسِيَّةُ أَنَّ (٣٦٠٠) شخص يَعْتَنِقُونَ الْإِسْلَامَ سَنَوِيًّا فِي فَرَنْسَا (٣).

---

١) موقع وكالة الأخبار الإسلامية (نبا): www.islamicnews.net، وموقع جريدة الشرق الأوسط: www.asharqalawsat.com.

٢) sato Tsugitaka, Muslim Societies, routledge, UK, ٢٠٠٤.

٣) موقع إسلام تايم: www.islamtime.net.

كَمَا أَكَّدَتْ وَزِيرَةُ الدَّاخِلِيَّةِ الْبِرِيطَانِيَّةُ (جَاكِي سميث) أَنَّ عَدَدَ الْمُسْلِمِينَ بِالْمَمْلَكَةِ الْمُتَّحِدَةِ فِي الْوَقْتِ الرَّاهِنِ عَامَ (٢٠٠٧م) قَدْ وَصَلَ إِلَى مِلْيُونَيْ شَخْصٍ، مُقَارَنَةً بِـ (١.٦) مُلْيُونٍ عَامَ (٢٠٠١م)، وَذِلِكَ بِزِيَادَةٍ قَدْرُهَا ٤٠٠ أَلْفٍ فِي أَقَلَّ مِنْ سَبْعَةِ أَعْوَامٍ، وَأَشَارَتْ صَحِيفَةُ (ذا جارديان) إِلَى أَنَّ الْأَرْقَامَ الْجَدِيدَةَ أَكَّدَتْ عَلَى مَكَانَةِ الْإِسْلَامِ، وَأَنَّهُ يُعَدُّ ثَانِي أَكْبَرِ دِيَانَةٍ فِي الْبِلَادِ بَعْدَ الْمَسِيحِيَّةِ؛ حَيْثُ بَاتَ الْمُسْلِمُونَ يُشَكِّلُونَ الآنَ (٣.٣٪) مِنْ سُكَّانِ بِرِيطَانْيَا، مُوَضِّحَةً أَنَّ الْإِسْلَامَ أَصْبَحَ أَسْرَعَ الدِّيَانَاتِ انْتِشَارًا فِي الْمَمْلَكَةِ (١).

كَمَا أَشَارَتْ عَمِلِيَّةُ مَسْحٍ حَدِيثَةٌ صَادِرَةٌ عَنْ مَرْكَزِ الْأَبْحَاثِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ فِي جَامِعَةِ جُورجِيَا الْأَمْرِيكِيَّةِ إِلَى أَنَّ الدِّينَ الْإِسْلَامِيَّ أَسْرَعُ الْأَدْيَانِ انْتِشَارًا فِي الْوِلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ ؛ حَيْثُ بَلَغَ عَدَدُ الْمَسَاجِدِ فِي أَمِرِيكَا أَكْثَرَ مِنْ (١٢٠٩) مساجد ، بُنِيَ أَكْثَرُ مِنْ نِصْفِهَا خِلَالَ السَّنَوَاتِ الْعِشْرِينَ الْمَاضِيَةِ، كَمَا تَتَرَاوَحُ نِسْبَةُ الَّذِينَ تَحَوَّلُوا إِلَى الدِّيَانَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ خِلَالَ السَّنَوَاتِ الْعَشْرِ الْمَاضِيَةِ مَا بَيْنَ (١٧ و٣٠٪) (٢).

أَمَّا فِي أَلْمَانيَا فَيَعِيشُ أَكْثَرُ مِنْ (٣.٣) مِلْيون مُسْلِم، وَيُشَكِّلُونَ حَوَالَيْ (٤٪) مِنْ مُجْمَلِ السُّكَّانِ، وَيَصِلُ عَدَدُ الْمَسَاجِدِ هُنَاكَ إِلَى مَا يَقْرُبُ مِنْ (٣٠٠٠) مَسْجِدٍ وَصَالَةٍ لِلصَّلَاةِ (٣).

---

١) الموقع السابق نفسه.

٢) موقع لواء الشرعية: www.shareah.com.

٣) موقع مجلة ألمانيا: www.magazine -deutschland.de.

هَذَا هُوَ الْإِسْلَامُ عَبْرَ التَّارِيخِ يَنْتَشِرُ بِسَلَاسَةٍ وَحَيَوِيَّةٍ؛ لِأَنَّهُ دِينُ الْفِطْرَةِ السَّلِيمَةِ، فَمَا أَرْوَعَ ذَلِكَ مِنْ دَلِيلٍ عَلَى صِدْقِ نَبِيِّنَا !صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَمَا قَدَّمْنَاهُ مِنَ شَهَادَاتٍ وَاضِحَةٍ تَدُلُّ عَلَى صِدْقِ نُبُوَّتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَمَالِ رِسَالَتِهِ، إِنَّمَا يَنْطَلِقُ مِنْ قَنَاعَتِنَا بِأَنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدَّمَ لِلْعَالَمِ أَجْمَعِ رِسَالَةً يَمْلَؤُهَا الْحُبُّ وَالتَّعَاوُنُ وَالْخَيْرُ.

وَمَا أَجْمَلَ أَنْ نَخْتِمَ بِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي تَنَبَّأَ فِيهِ بِانْتِشَارِ الْإِسْلَامِ فِي رُبُوعِ الْأَرْضِ : **{ لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الْأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَلَا يَتْرُكُ اللهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ(١) إِلَّا أَدْخَلَهُ اللهُ هَذَا الدِّينَ بِعِزِّ عَزِيزٍ، أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ، عِزًّا يُعِزُّ اللهُ بِهِ الْإِسْلَامَ، وَذُلًّا يُذِلُّ اللهُ بِهِ الْكُفْرَ }(٢)**.

*****

١) بيوت الوبر والمدر أي: بيوت البوادي والمدن والقرى، وهو من وبر الإبل؛ لأن بيوتهم يتخذونها منه، والمدر جمع مدرة وهي البنية، وقطع الطين اليابس.

٢) رواه أحمد برقم (١٦٩٥٧)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح على شرط مسلم. والحاكم (٨٣٢٦) وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي، وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٣).